الجهاد ومعركة الشبهات!

بقلم الشيخ المجاهد
أبي يحيى الليبي
(حسن قائد)
حفظه الله

مركز الفجر

جمادى الآخرة ١٤٣١هـ

{الجهاد}

ومـعـركـة الـشـبـهـات!

بقلم الشيخ المجاهد

أبو يحيى الليبي (حسن قائد)

~ حفظه الله ~



مركـز الفجـر للإعـلام

جمادى الأخرة 1431هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد :

كتب الله عز وجل على عباده المؤمنين عبادة الجهاد، وأخبرهم سبحانه بأنه كرهٌ لهم، فقال : {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ}[البقرة/216]، فالمشقة، والنصب، ومنازعة رغبات النفس، ومغالبة ثقلة الأرض التي تشدّها، والجوع، والعطش، والخوف، وإنفاق الأموال ونقصانها، وكثرة القتل، وتحمُّل الجراح والآلام،

ومفارقة الأهل والــديار، وزلزلة القلــوب وغيرهــا، كلها صــفات لصيقة بهـذه العبـادة بل هي جـزءٌ منها : {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ}[البقرة/155]، وقال سبحانه : {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}[التوبة/120]

فبهـذه وغيرها أصـبح الجهـاد (كرهـاً) للنفـوس الـتي جبلت على الجنوح إلى طلب السلامة، والركون إلى الدعة، والقنوع بالراحة، والبعد عن المخــاطر، والميل إلى الإخلاد، فمقتضــيات الجهــاد ومتطلبـات النفس غالبـاً ما تكـون على طـرفي نقيض كما قـال تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ}[التوبة/38]، وقـال سـبحانه : {قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}[التوبة/24]، وقـال سـبحانه وتعـالى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا}[النساء/77]

فالجهاد يحتاج إلى التجرد له والنهـوض بأعبائـه، وتحمّل مشـاقِّه، والمصــابرة في أدائــه، والنفس تــأبى ذلك وتنحط إلى حضــيض الأرض متشبثة بزخارفها، ومنكبة على متاعهـا، وراضـيةً بزهرتهـا، ففي القتــال أمامها المــوت والأهــوال، وفي الــدنيا خلفها الولد والأموال، فإما أن تُرد إلى هذه أو تُشَد إلى تلك، فهي وإن كـانت ما ســـتقدم عليه خــــير مما هي فيه إلا أن النفس مولعة بحب العاجل، فتريد كل شيء نقداً ولا تقبل النسيئة.

إمّا جهادٌ وإمّا ذلٌ فاختر!

بقلم الشيخ ....
المجاهد: أبو يحيى الليبي (حسن قائد) - حفظه الله

ومن هنا نعلم سرَّ قول نبينا صلى الله عليه وسلم : [إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم] رواه أبو داود، وقد يُفهم من هذا الحديث أن الجهادَ يجب أن يكون المقدَّم دائماً، وليس لأحدٍ أن يتعالَّ في تركه بالاشتغال بأمرٍ من أمور الدنيا، فإن أمكن القيام بعبادة الجهاد مع الاشتغال بالزرع وممارسة البيع فذاكَ، وإلا فإن الاشتغال بعبادة الجهاد التي بها بقاء الحياة والحفاظ على الدين وحياطة حوزته هو المقدّم، قال الإمام ابن رجب الحنبلي –رحمه الله- : [ولهذا كره الصحابة رضي الله عنهم الدخول في أرض الخراج للزراعة فإنها تشغل عن الجهاد.](الحكم الجديرة بالإذاعة :14).

وقال الإمام ابن النحاس الشهيد –رحمه الله- عن الحديث السابق: [ومعنى الحديث: أن الناس إذا تركوا الجهاد وأقبلوا على الزرع ونحوه تسلط عليهم العدو لعدم تأهبهم له واستعدادهم لنزوله ورضاهم بما هم فيه من الأسباب فأولاهم ذلا وهوانا لا يتخلصون منه حتى يرجعوا إلى ما هو واجب عليهم من جهاد الكفار والإغلاظ عليهم وإقامة الدين ونصرة الإسلام وأهله وإعلاء كلمة الله وإذلال الكفر وأهله.

ودل قوله صلى الله عليه وسلم " حتى ترجعوا إلى دينكم" على أن ترك الجهاد والإعراض عنه والسكون إلى الدنيا خروج عن الدين ومفارقة له وكفى به ذنباً وإثماً مبيناً](مشارع الأشواق : 106)

وليس المقصود من الخروج عن الدين – والله أعلم - هو الكفر المخرج من الملة كما قد يفهمه البعض فلا أحسب أن أحداً من أهل العلم يقول بأن المسلم التارك للجهاد عمداً والراكن إلى الدينا يكون كافراً بذلك، ولكن –والله أعلم- أن المعنى الإجمالي المراد هو بيان أن التخلي عن عبادة الجهاد والاشتغال بأمور الدنيا عنه يؤدي إلى تسلط العدو الكافر وتغلبهم على ديار المسلمين وإجراء أحكامهم عليهم مع محاربتهم للدين وشرائعه لما يضمرونه من الحسد والبغضاء والعداوة للحق وأهله وهذا يقود إلى شيوع الفساد وانتشار الكفر وضعف الدين وانحساره بين الناس وفي قلوبهم ومع توالي الأجيال التي لا تعرف حقاً ولا

ديناً ينشأ نشءٌ على الضلال والكفر والعياذ بالله، وخير شاهدٍ على ذلك ما حصل في الأندلس التي صارت اليوم نسياً منسياً، وهذا يعني أن دفع الكفرة وحفظ ديار المسلمين ودينهم لا يتم إلا بالجهاد في سبيل الله، كما أن الحديث يدل على أن جهود الدعاة ينبغي أن تنصب على الدعوة إلى الرجوع لعبادة الجهاد وتحريض الناس عليها وأنها الباب الشرعي الذي ترجع به الأمور إلى نصابها فيعز الدين ويذل الكفر وينتشر الإسلام وينقمع الشرك، وسيأتي من كلام الإمام أبي عبد الله الحليمي ما يؤكد هذا المعنى، ومن هنا عدَّ بعض العلماء الجهاد ركناً من أركان الدين وهو حريٌّ بأن يكون كذلك كما قال الإمام ابن قاسم الحنبلي – رحمه الله- في حاشيته على الروض : [وعده بعضهم ركنًا سادسًا للدين الإسلام، فلذا أوردوه بعد أركان الإسلام الخمسة]اهـ.

فبهداهم اقتده...

ويؤيد هذا ما جاء عن الصحابة رضي الله عنهم حينما اشتغلوا بالجهاد وفرَّغوا أنفسهم لأدائه فأدى ذلك إلى ضياع كثيرٍ من أمور دنياهم التي كانوا بها مشتغلين، فبعد أن تمكَّن الدين وقام عموده وخفقت بنوده وكثرت جنوده، وانتشر نوره ودخلت فيه جموع الناس طوعاً أو كرهاً تحدَّث بعضهم إلى بعضٍ فيما بينهم (سراً) بأن يفرِّغوا أنفسهم لإصلاح شؤونهم والاعتناء بأموالهم، ومع ذلك فلا يظهر أنهم حدثوا أنفسهم بترك عبادة الجهاد كليَّةً، فأنزل الله تعالى في ذلك قوله : { وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة/195]، وقد قال الصحابي أبو أيوب الأنصاري –رضي الله عنه- : [إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار لما نصر الله نبيه وأظهر الإسلام قلنا هلم نقيم في أموالنا ونصلحها فأنزل الله تعالى : "وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة " فالإلقاء بالأيدي إلى التهلكة أن نقيم في أموالنا ونصلحها وندع الجهاد]رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن حبان وبوَّب عليه بقوله : [ذكر الإخبار عما يجب على المرء من ترك الاتكال على لزوم عمارة أرضه وصلاح أحواله دون التشمير للجهاد في

سبيل الله وإن كان في المشمرين له كفاية](صحيح ابن حبان : 11/9)، فكيف إذا لم يكن في المشمرين له كفاية؟!

لا ملجأ ولا مغارة ولا مُدّخل عن الجهاد

إذاً فما دامت عبادة الجهاد قد تضمّنت كل هذه المشاق، وأداؤها بحاجة ملحة إلى منازعة النفس، وهو مركبٌ لأنواع المخاطر وضروب المغامرات، فلا غرو أن نجد كثيراً من آيات القرآن الكريم وهي ترد على سائر العلل وتفند الشبه التي تعلّق بها كثيرون ممن أرادوا التملص والتخلص من أداء هذه العبادة، وكشفتها واحدة واحدة ببيان ناصع وبرهانٍ قاطعٍ، وحججٍ مُحكَمة، وتقريراتٍ مفحمة سُدَّت بها أبواب كل مموهٍ يود أن لو وجد "ملجأً أو مغاراتٍ أو مدَّخلاً" ليولي إليها وهو جَموح.

والعجيب أنك لا تكاد تجد – قديماً وحديثاً - فيما يتعلل به المتعللون في تفلتهم من أداء عبادة الجهاد قولاً صريحاً بأنَّ داعيه إلى ذلك هو الجُبن، أو الخوف من الموت، أو تهيّب المخاطر، أو الحرص على الدنيا، أو مشقة مفارقة الولد والأهل والأوطان، وإنما غالباً ما تكسى تلك العلل العليلة ثوبَ النصح، أو العجز المسقِط للتكليف (عدم الاستطاعة)، أو الحرص على أرواح المجاهدين، أو الخوف من مآلات الأمور السيئة، ونحو ذلك، وسبب هذا أن الجبن هو من أقبح ما يمكن أن يوصف به المرء وهو مذَمَّةٌ تنفر منها الطباع جِبلَّةً، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يتعوذ منه.

وكثيراً ما تخدع المرءَ نفسُه فيظن فيها الشجاعة والإقدام والجرأة حتى إذا عاينَ الموت وباشر أسبابه ورأى أهواله خذلته وصار قلبه في جناحي طائر، وهذا أحد الأسباب التي ذكر العلماء أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى لأجلها عن تمني لقاء العدو إذ ليس الخبر كالمعاينة، وقد تُبدي النفس في ذلك الموطِن ما كانت تخفيه من قَبل، ولأن مثل هذه المواطن لا محل فيها للتصنّع والتمويه فإمّا تصبّر وتجلّدٌ ومجالدة وإما فرارٌ وتوليةٌ للدبر، كما قال الإمام ابن دقيق العيد –رحمه الله- : [ولما كان لقاء الموت من أشق الأشياء وأصعبها على النفوس من وجوه

كثيرة وكانت الأمور المقدرة عند النفس ليست كالأمور المحققة لها: خشي أن لا تكون عند التحقيق كما ينبغي فكـره تمـني لقـاء العدو لذلك]اهـ.
وهذا المعنى الذي أشار إليه قريبٌ منه قوله تعالى :{ وَلَقَـدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ}[آل عمـران/143]، كما روى ابن أبي حـاتم فيهـا: [أن رجـالا من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا يقولون: ليتنا نقتل كما قتل أصحاب بدر ونستشهد، أو ليت لنا يوما كيـوم بـدر نقاتل فيه المشـركين، ونبلي فيه خـيرا ، ونلتمس الشـهادة والجنة والحيـاة والرزق، فأشهدهم الله أحدا فلم يلبثوا إلا من شاء الله منهم]اهـ.

الجبن جبنٌ وإن عددته عقلاً

هــذا ولأن ســاحات الــوغى مظنة بــروز تلك الصــفة الذميمة (الجبن)، وظهور أعراضها على صفحات الوجوه كما قال تعـالى : {فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَـوْتِ}[الأحـزاب/19]، وقـال : {فَـإِذَا أُنْـزِلَتْ سُـورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُـرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِـيِّ عَلَيْـهِ مِنَ الْمَـوْتِ}[محمد/20] -احتـاج الأمر إلى إيجـاد واقٍ يـدرأ بِه المـرء عن نفسه ويتـترس به لـرد سـهام التشـنيع والتقريع الـتي ستنصب عليه من هنا وهنـاك، فكـان ذلك الترس هو الحكمة المغلَّفة، والتعقّل المفتَعل، والاتّـزان المموِّه، والرزانة المتصنّعة، والتفكير الهادئ المتكلّف:

يرى الجُبناءُ أنّ الجُبْنَ عقلٌ ... وتلكَ خديعةُ الطّبْعِ اللّئيمِ

لا سيما إذا وافقت بعض أحداث الجهاد شيئاً مما ذكـروه من قبل و (ناصحوا) به، فعندها سترى الشماتة سافرةً، والتضـلّع بـالخِبرة التامة، والبصيرة النافـذة، والاطّلاع على عـواقِب الأمـور، فتنطق الألسن : {لَـوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُـوا}[آل عمـران/168]، أو : {قَـدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَـهِيدًا}[النسـاء/72]، أو {لَـوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا}[آل عمران/156].
وكما أن الله عز وجل يختـبر عبـاده المؤمـنين بـأنواعٍ شـتى من الابتلاءات ليسـتخرج منهم عبـاداتٍ ما كـانت لتظهر لـولا ذلك كزيـادة الخضـوع والتـذلل والتضـرع والتواضع والافتقـار وكـثرة

الدعاء والانكسار والصبر والتبرؤ من الحـول والقـوة وغـير ذلـك، فإن تلك الابتلاءات تكون سبباً أيضـاً في هتك أسـتار أهل النفـاق والـذين في قلـوبهم مـرضٌ ممن لا يكـاد المسـلمون يعرفـون أحـوالهم ويطّلعـون على خبايـاهم إلا بـنزول أمثـال تلك المحن، فتنطق الألسنة بما استكن في القلـوب شـاءت أم أبت، وتقـذف على الأسـماع بكلمـات سـافلة قاتلة كـانت مدفونة في أعمـاق النفس لا يعلمها إلا علاَّم الغيـوب، فتخـرج منسـابةً مفصِحةً عن المكنون مثيرةً للمدفون، أو تبرز تصّـرفات وأفعـال عجيبة غريبة لا تليق بِمن رسخ الإيمان في قلبه :{وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَـرَضٌ مَا وَعَـدَنَا اللَّهُ وَرَسُـولُهُ إِلَّا غُـرُورًا}[الأحـزاب/12]، : {يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْـرِ شَـيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَـا}[آل عمران/154]، وقال سبحانه : {وَيَقُولُ الَّذِينَ آَمَنُوا أَهَـؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْـبَحُوا خَاسِرِينَ}[المائدة/53]

إن الله يدافع عن الذين آمنوا

ومن هنا فـإن الله عز وجل قد تـولى بنفسه الـدفاع عن الجهـاد والمجاهدين، وردَّ كل ما يتشبث به القاعدون الخالفون المبطّئون المعوِّقـــون المعتـــذرون من الحجج في تخلّيهم عن أداء هـــذه العبادة، وطعنهم في القائمين عليها، واسـتخفافهم بهم وبقتـالهم ومصـابرتهم وحـتى نفقـاتهم، وذلك لنعلم أن عبـادة الجهـاد هي معركةٌ شرسةٌ ضروسٌ لا ضد الأعداء الكفرة في سـاحة الحـرب بالسـلاح فحسـب، بل كـذلك ضد مثـيري الشـبهات في طريقهـا، وناصـبي أنـواع العراقيل لمنعها والصـدِّ عنهـا، والمتعلقين بـأدنى الأوهام للتنصل منها والاسـترواح إليهـا، هـذا من جهـةٍ، ومن جهة أخرى كي نُدرك خطر تلك الشبهات الـتي قد تعظم وتَفخُم حـتى تؤدي إلى إسقاط هذه العبادة أو التهوين من شـأنها والتقليل من مكانتها في الشـرع وفضفضة معناهـا، وهو ما يقـودُ إلى هـدمِ أركان الدين التي تحاط بالجهاد، وحلول الذلة والمهانة بخـير أمـةٍ أخـرجت للنـاس، فيسـقط النـاس في الفتنة العامة العميـاء من حيث أرادوا الفرار منها والنجاة من حبائلها، قـال تعـالى : {وَلَـوْلَا دَفْـــعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَـــهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَـــدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو

فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ}[البقرة/251]، وقال عز وجل : {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}[الحج/40]،

قال الإمام ابن النحاس –رحمه الله-: [قال الإمام أبو عبد الله الحَلِيمي في شعب الإيمان : أبان سبحانه أنه لولا دفع الله المشركين بالمؤمنين، وتسليط المؤمنين على دفعهم عن بيضة الإسلام، وكسر شوكتهم وتفريق جمعهم، لغلب الشرك على الأرض، وارتفعت الديانة، فثبت بهذا أن سبب بقاء الدين واتساع أهله للعبادة إنما هو الجهاد، وما كان بهذه المنزلة فحقيق أن يكون من أركان الإيمان، وأن يكون المؤمنون من الحرص عليه في أقصى الحدود والنهايات.](مشارع الأشواق : 80)

وقال سبحانه : {إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[التوبة/39].

ولما كان هذا التعلل لن ينقطع عند الأحداث العارضة التي نزل فيها القرآن بل سيستمر تولد نظائرها وتنوعها وتفرعها ويستشري شرها ويتفنن الناس في استحداثِ غيرها وابتكار أمثالها عصراً بعد عصرٍ ومعركة إثر معركة -جاء القرآن بردوده الصارمة وتفنيداته الحاسمة ليقطع دابرها ويستأصل شأفتها ويشنّ عليها وعلى مروِّجيها ومزخرفيها والمتعلّقين بها حربَ فضحٍ لا هوادةَ فيها؛ حتى لا تبقى حجة لمحتجٍ ولا أمنية لقاعدٍ ولا مستَندٌ لخالف، فإن ما تكرهه النفس ويشقّ عليها فعله ويناقِض رغباتها ستجتهد في دفعه بكل وسيلة، وستنقب عن دقائق المعاذير لِتجنّبِه، وتسلك ضروب الحِيل للحيلولة دون تحمُّله، وما الجهاد إلا محلّ الابتلاء والصبر، وموطن التمحيص والتمييز كما قال عز وجل :{وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ} [محمد/31]، قال الإمام ابن جريرٍ في هذه الآية : [يقول تعالى ذكره لأهل الإيمان به من أصحاب رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم "وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ" أيها المؤمنون بالقتل، وجهاد أعداء الله "حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ" يقول: حتى يعلم حزبي وأوليائي أهل الجهاد في الله منكم، وأهل الصبر على قتال أعدائه، فيظهر ذلك لهم، ويعرف ذوو البصائر منكم في دينه من

ذوي الشـكّ والحـيرة فيه وأهل الإيمـان من أهل النفـاق ونبلو أخباركم، فنعرف الصادق منكم من الكاذب]اهـ وقال تعالى : {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ}[آل عمران/142] ونحوها من الآيات نسأل الله الستر والعافيـة، والموفَّق من وفّقه الله : {وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}[هود/88]

ألا في الفتنة سقطوا

وإلا فقلي بربكَ! ماذا سيضير تخلّف رجلٍ واحدٍ عن معركةٍ قـوام جيشها ثلاثون ألفاً حتى يتولى القرآن الرد على شبهةٍ هزيلةٍ رذيلةٍ تعلّق بها رجلٌ مغمورٌ مغموز:{ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي}[التوبة/49]، فيأتي الردُ الحاسم القاصم :{أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ}[التوبة/49]، مع أنه لم يثر شبهته ليثني بها غـيره عن الجهـاد، ولا هي من قبيل ما يقبل الـرواج، وإنما فقط بحث لنفسه عن مخـرجٍ ينجو به من تكـاليف النفـير ويريحها من وعثـاء السـفر فلم يجد أهـوَن مما تعلق بـه، فاتّخذ دعوى الحفـاظ على دينه والبعد عن الفتنة ملاذاً آمنـاً يـركن إليه فراراً من أداء هذه العبادةِ الممحِّصة.

فكيف بِمن يملأ الصفحات بل ويصنِّف الكتب ويسهر الليالي منقباً عن الشبهات التي يتعلل بها لنفسه ويُقعِد بها غيرَه محـاولاً جهده إحكامها وإتقانها ومروجـاً لها بزخـرف القـول ليحمِل وزر قعـوده كـاملاً ومن أوزار الـذين يثبطهم ويزهِّدهم في الجهـاد ويقطع عليهم طريق الجنّة الذي لا شك فيه؟!، وهذا –واللـه- من الحرمـان والخـذلان العظيم للعبد إن لم يتب ويرجع وينتبه من غفلته، فكما أن جزاء الحسنة حسنةٌ بعدها، فكذلك عقوبة السيئة سيئةٌ بعدها، ومن أعظم العقوبات في ذلك أن يستحسن المـرء ذنبه فيراه حسناً كما قال تعالى : {أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآَهُ حَسَنًا}[فاطر/8].

فهذا المـرء الذي رضي بالنكول عن القيام بعبادة الجهاد وقنع بذلك واستطابته نفسه عوقب بأن فُتِح عليه باب سيئةٍ فوقها وهي تسويغ ما هو فيه واستجلاب أنواع الأعذار وتسليكها، والأشنع من ذلك الاستدلال لها تكلّفاً بأدلة الشرع وتلفيقاً لكلامٍ

ملتقـطٍ لعلمـاء، فلما تمـادى في ذلك وأعجبه واسـتحلاه حلَّت به سيئة بعدها وهي تثبيط غيره وإشراكه في إثمه ودعوته لما تلبَّس بـه، ومن سن سـنةً سـيئة كـان عليه وزرها ووزر من عَمِل بهـا، فبَدل أن يكون نافراً للجهاد أصبح نافراً عنه منفِّراً منه، وبدل أن يحـرِّض عليه غـدا مثبِّطـاً مبطِّئـاً من أراده، وبـدل أن يـدفع عنه أنــواع الشــبهات تـولى بنفسه اختلاقها وإشـاعتها والــترويج لها وتزيينها: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَـالِفُونَ عَنْ أَمْـرِهِ أَنْ تُصِـيبَهُمْ فِتْنَـةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[النور/63]

وما أحسن ما قاله الإمـام المجاهد شـيخ الإسـلام –رحمه اللـه- : [ولما كـان في الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر والجهـاد في سـبيل الله من الابتلاء والمحن ما يعـرض به المـرء للفتنـة، صـار في النـــاس من يتعلل لـــترك ما وجب عليه من ذلك بأنه يطلب السلامة من الفتنة، كما قال عن المنـافقين : "وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُـولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَـــةِ سَــــقَطُوا" الآية ... إنه طلب القعود ليسلم من فتنة النساء، فلا يفتتن بهن،... قال الله تعـالى: " ألا في الفتنة ســـقطوا" ، يقـــول نفس إعراضه عن الجهــــاد الواجب ونكوله عنه وضعف إيمانه ومرض قلبه الذي زين له ترك الجهـاد : فتنة عظيمة قد سـقط فيهـا، فكيف يطلب التخلص من فتنة صغيرة لم تصـبه بوقوعه في فتنة عظيمة قد أصـابته؟ والله يقول : "وقاتلوهم حتى لا تكـون فتنة ويكـون الـدين للـه"، فمن تــرك القتــال الــذي أمر الله به لئلا تكــون فتنة: فهو في الفتنة سـاقط بما وقع فيه من ريب قلبه ومـرض فـؤاده، وتركه ما أمر الله به من الجهاد.]اهـ.

فلا عجب إذاً أن تسـمى سـورة التوبة بالفاضـحة، والمقشقشـة، والبَحـوث، والحـافرة، والمنقِّرة، والمثـيرة، والمبعـثرة وغـير ذلك من الأسماء التي تدل على الخلوص إلى أعماق قلوب المنـافقين واسـتخراج ما فيها لـيراه النـاس مجسّـداً في أقـوالهم وأفعـالهم ومرواغــاتهم وحيلهم الــتي استســلموا لها وانســاقوا لقيادها في معركةٍ عسيرةٍ حـاولوا جهـدهم التخلّص منها والتملص من تحمّل مشـاقِّها : {لَـوْ كَـانَ عَرَضًـا قَرِيبًا وَسَـفَرًا قَاصِـدًا لَاتَّبَعُـوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَـوِ اسْـتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}[التوبة/42].

معركة فانظر موقفك منها!

هــذا وليس عصــرُنا بمعــزلٍ عن معركة الشــبهات الــتي خاضــها القــرآن ضِّــدَّ المنــافقين وضــعاف الإيمــان فكشف زيفهــا، وفضح أهلها، وأبطل دعواها، وكَبت طغواها، وفنّد حججها، وقطّع لَجَجها، بل أصبحت اليوم متجــددة متولّــدةً في صــورٍ شــتى، ويُسَــوَّق لها بوسائل متعددة، وتُنفَّق سلعتها بطرائقَ متنوعة، وتُبثُّ في الناس وتنشر ويبــدى فيها ويعــاد حــتى تثبَّت في النفــوس وترسَّــخ في القلــوب فتصــبح من المســلَّمات الــتي هي عين العقل والحِكمة والــرأي-الــذي هو قبل شــجاعة الشــجعان- وتحــاط بزخــارف الأقاويــل، وتُــدثَّرُ بــالتفخيم والتهاويــل، مع أن القــرآن قد دحضَ نظائرها مما تعلق به المتعلقون، وللمعاصرين أمثالها.

فالشبهة هي الشبهة روّج لها مَن روَّج ونشرها من نشر، والتثبيط هو التثبيط مارسه مَن مارسه وأداه من أدى، حـــتى وإن خلصت نيته وصدقت طويته؛ لأن ضــرر رواجها عائــدٌ على الإســلامِ وأهله ولا بد، فرب مفسدٍ بأفعاله وهو مريدٌ للإصلاح بقلبه.

ولقد كانت آيات القرآن تأتي بتفنيد الشبه وقطع حجج المعتذرين ثم تخلُص إلى أعمــاق قلــوبهم لتظهر الــدوافع الحقيقية وراء ما يبثونه وتجلِّيها غاية التجلية حــتى ينظر المؤمنــون في كل زمــان إلى أمثال تلك الأعذار والتعللات بعين الريبة وعــدم المبــادرة في الاســتقبال والقبــول، ولا يفتنهم زخرفها أو يســبيهم بهرجها فتقع الكارثة على الدين وأهله، سواء كانت تلك الدوافع القلبية الخفية نفاقاً أو مرضَ قلبٍ، أو ضعف إيمانٍ، أو جبناً، أو تعلّقاً بالــدنيا، أو خوفاً من الموت وحرصاً على الحياة، أو مراعاةً لمنصبٍ وجاهٍ أو غــير ذلك مما يســتكنُّ في القلــوب ولا يعلمه إلا العليم الخبــير : {أَلَمْ يَعْلَمُــــوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِــــرَّهُمْ وَنَجْــــوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ}[التوبة/78].

فمثلاً تأمل قوله تعالى : {وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيــدُونَ إِلَّا فِــرَارًا}[الأحــزاب/13] كيف ذكــروا حجتهم (المقبولــة) لينســلوا بها من ســاحة المعركة فــإذا بــالقرآن يفضــحهم ويظهر ما وراء زخــرف القــول من الــداء الدفين وهو إرادة الفرار، ليس هذا فحسب بل بين حقيقة حــالهم وتذبـــذب إيمـــانهم وأنهم : {وَلَـــوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ

سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا}[الأحزاب/14] ونحو ذلك من الآيات التي تذكر ما يحتج به المحتجون –وغالباً ما تكون بظاهرها مستحسنةً- ثم يكشف الله عن حقيقة ما يحرّكهم ويدفعهم للتسلل والتخلي عن عبادة الجهاد، كما قال عز وجل : {يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ}[آل عمران/154]، وقال عز وجل : {يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ}[آل عمران/167]، وقال سبحانه : {يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ}[الفتح/11]، فليكن هذا الأمر نصب الأعين، فسبحان من خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه وهو أقرب إليه من حبل الوريد، ونعوذ بالله من حال الذين {يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ}[البقرة/9].

وانظر إلى الفرق الكبير بين الباحثين عن الأعذار المنقبين عنها ولو كانت أدق من رؤوس الإبر وبين الحريصين على الجهاد البكّائين لفواته الذين وصفهم الله بقوله : {وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ}[التوبة/92]، هذا مع أنهم مشاركين للنافرين في أجرهم رغم قعودهم بسبب عذرهم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : [إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم فيه قالوا يا رسول الله وهم بالمدينة قال وهم بالمدينة حبسهم العذر]رواه البخاري ومسلم.

وقد بين الله سبحانه وتعالى حال الفريقين : الحريصين على الجهاد الجادِّين في القيام به وغيرهم ممن يفتش لنفسه عن أي شيءٍ يتعلَّق به كي لا ينفر إلى ساحاته فقال سبحانه : {لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (44) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ}[التوبة/44، 45]، قال الإمام ابن جرير –رحمه الله- : [وهذا إعلامٌ من الله نبيَّه صلى الله عليه وسلم سِيمَا المنافقين: أن من علاماتهم التي يُعرفون بها تخلُّفهم عن الجهاد في سبيل

الله، باستئذانهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في تركهم الخروجَ معه إذا استنفروا بالمعاذير الكاذبة.]اهـ.
ولا أقصد بذلك أن نجعل كل ما يقال عن المجاهدين مدعاةً للطعن في نيات الأشخاص وتكلُّف معرفة الغيوب، فليس هذا من شأننا ولا نحن بطالبين له أو مطالبين به، وإنما علينا أن نضع تلك الشبهات التي تدعو إلى الكفِّ عن الجهاد وتقيم العقبات تلو العقبات لمنع النفير إلى ساحاته في دائرة (التهمة) والتشكيك والحذر ليضعُف أو يبطل أثرها اتباعاً لمسلك القرآن الكريم في رد تلك الشبه التي صاحبت الغزوات ولاصقت مسيرة الجهاد زمَنَ النبي صلى الله عليه وسلم، حيث ظهر أن أغلب –إن لم يكن كل- تلك المتعلقات التي تشبَّث بها مَن أراد التنصل عن الجهاد كان دافعها داءً مكنوناً ومرضاً دفيناً وسقماً غائراً وليس هو النصح للحق، ولا الحرص على أهله، ولا طلب الأصلح لهم، ولا الخبرة بالعواقب (لو نعلم قتالا لاتبعانكم)، فلا يُبهَر المرء بزينة ما يُقدّم له من الاحتجاجات والمسوِّغات مهما كانت رائقةً تَسر للناظرين.

تحلَّ بحلية الرجال...وخض غمرات القتال

ومِن مصائب عصرنا – وما أكثر مصائبه – أن القيام بعبادة الجهاد، وخوض غمار المخاطر والمغامرات، والتمرد على الواقع المُكبِّل للأيدي والأرجل، والغالّ للأعناق بأنواع الأطواق، والمميت للقلوب، وعدمَ التقيد (بالرسميات) -أصبح في عرف الكثيرين سمةً من سمات التهور والطيش والخفة والشبابية!، حتى إن كثيراً من العلماء كاد ينغرس في قلوبهم أن حمل السلاح واستنشاق النقع والمرابطة في الثغور والإقامة في معسكرات الجهاد وتحمُّل شظَفها وبذاذة عيشها والاختلاط بالمجاهدين فيها كُل ذلك يناقض الوقار والسكينة والرزانة والرصانة وحُسن السمت والحِلم والأناة ونحوها من الصفات التي ينبغي للعالم أن يتحلّى بها، فلوكان هذا الأمر حقاً لما كان لصاحبه عذراً، فكل تكملة من حيث هي تكملة إذا عادت على أصلها بالبطلان فهي باطلة، وما ذلك إلا ضربٌ من ضروب التعلق بالدنيا والركون إلى مظاهرها والمبالغة في تعظيمها، بل هو من وساوس الشيطان

وحبائله الــتي يصــيد بها مَن اتبع خطواته فيصــده عن الطاعــة، والقناعــةُ بها هي استســلامٌ للشــيطان، وإلا فتكفي غــزوة ذات الرِّقاع لتزيل هذه الشبهات المرقَّعة والـتي لا تقي حَّراً ولا تـدفع قُراً، ولا تنقذ أمَّةً أو تعلي همّةً، ولله درُّ سـيد بيـان الغـرب محمد البشير الإبراهيمي –رحمه اللـه- حيث يقـول : [ومن الكيد الكُبّـار الــذي رمى به الأمــراءُ المســتبدون هــؤلاء العلمــاء الضــعفاء في العصور الأخيرة أنهم يعفونهم من الجندية التي هي حلية الرجــال .

وإن في قبول العلماء لهذا الإعفاء، وسعيهم له لشهادة يسجلونها على أنفسهم بفقد الرجولة؛ وقد استطابوا هذا الإعفاء، وأصــبحوا يعدونه تشريفاً لهم، وتنويهاً بمكانتهم ، ومعجزة خصوا بها، ودليلاً تقيمه الحكومات الإسلامية على احترامها للعلماء!!!

فهل يعلمــون أن الخلفــاء الراشــدين ومن بعــدهم من الملــوك الصالحين ما كـانوا ليُعفـوا عالمـاً من بعـوث الجهـاد والفتح؟ وما كــان مســلم فضــلاً عن عــالم ليطلب الإعفــاء أو يتســبب له أو يرضى به لو عرض عليه، بل كانوا يتسابقون إلى ميادين الجهــاد، والعالم الــديني – دائمــاً- في المقدمة لا في الســاقة، ولقد كـانوا يعدون الاعتذار عن الخروج من سمات المنافقين.]اهـ.

ومن تأمل ســيرة الصــحابة رضــوان الله عليه رأى عجبــاً في تنافسهم على الجهاد ونفورهم عن البقـاء مع الخـالفين،وربما لم يكن مطلب أحدهم إلا أن يقتل فيدخل الجنة، بل حتى شـهداؤهم رضي الله عنهم حرصوا –وهم في الجنة- أن يبلغوا رسـالتهم إلى إخوانهم ليدفعوا عنهم النكول عن القتال والزهد في الجهاد، فعن ابن عباس –رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [لما أصـيب إخـوانكم بأُحُد جعل الله أرواحهم فى جـوف طـير خضر تـرد أنهـار الجنـة، تأكل من ثمارها وتـأوي إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العـــرش، فلما وجـــدوا طيب مـــأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا: من يبلغ إخواننا عنا أنا أحيــاء فى الجنة نرزق لئلا يزهـدوا فى الجهـاد ولا ينكلـوا عند الحـرب؟ فقـال الله سبحانه : أنا أبلغهم عنكم. قـال : فـأنزل الله (ولا تحسـبن الـذين قتلـوا فى سـبيل الله أمواتا) ». إلى آخر الآيــة]رواه أحمــد، وأبو داود، والحاكم.

لا تكن سمسار أهواء

ولذلك فإن على العلماء الصادقين العاملين -إن كانوا يريدون التغيير حقاً- أن يتمرّدوا على هذا الواقع، ويقطِّعوا حِبال شَرَكه، ويخرجوا عن سكة القاطرة التي رسمها لهم الطغاة المتجبرون المستبدون الذين يريدون منهم أن يجعلوا الجهاد عضين، فتراهم يسمحون لهم بالحديث عن جهادٍ يوافق أهواءهم ويلبي رغباتهم ويحقق مصالحهم أياماً معدوداتٍ، حتى إذا انقضت المهمة وتحصل المقصود قلبوا لهم ظهر المجن وأولغوا فيهم المدى، وألجموا أفواههم وسفهوا فتاويهم فتصبح في عداد المنسوخات التي ترفع حكماً وذكراً، وفي الوقت نفسه تجدهم يحاربون جهاداً ربما كان أوضح راية وأجلى غايةً ويحاولون إلجاء أولئك العلماء ليكونوا لهم في قلب الحقائق سنداً وعضداً، فينزلق معهم في هاوية الأهواء مَن لم يحصِّن نفسه بالورع والخشية لله، وبهذا أصبحت الأمة في كثيرٍ من الأحيان ليست متبعة في الحقيقة للعلم وأهله ولا متقيدة بأحكام النوازل وضوابطها، وإنما هي خاضعة لتقلبات أهواء السفهاء السفلة من الحكام الذين لا يرجون لله وقاراً وضائعة وراء شهواتهم التي يميلون بها عن الحق ميلاً عظيماً، وإنما سخَّروا بعض المنتسبين للعلم ليُخرجوا تلك الأهواء المرذولة العفنة في قالب العلم والفتوى فعلَ من يطلي العذرة بالمسك تطييبا لها، ليكون العامي المسكين ضحيّة تلك الفتاوى وأسيرَها، وما كان لمتّبع هوى نفسِه أن يسلك جادَّة الحق ويسلمَ من الانحراف والضلال فكيف بمن استسلم لأهواء غيره من عُبَّاد الشهوات الصم البكم الذين لا يعقلون، فيجمع شراً على شرٍّ فيصدق فيه المثل "أحشَفاً وسوءَ كِيلة"؟، قال تعالى: {وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}[ص/26]، وقال عز وجل : {فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}[القصص/50]

فيا لها من جنايةٍ عظيمة تجترح في حق الدين وأهله، وإن شئت المثال فقارن كلام كثير من العلماء المعاصرين بين الجهاد في

فلسطين والجهاد في العراق، أو الجهاد في أفغانستان إبان احتلال الروس لها ثم بعد تغلُّبِ النصارى الأمريكان وأعوانهم عليها، وهذه أمثلة واضحة لا تفتقر إلى استنطاق، وتَشابُهُ حالِتها بل تطابُقُها من حيث التوصيف الشرعي لا يغيب عن منصف متجرّدٍ للحق، فلا يحتاج الأمر إلى كثرة الفلسفات ولا الإغراق في التحليلات، ولا محاولة استلال دقائق الفروق التي لا تغني من الحق شيئاً، والتي إن أمعنت النظر فيها تجدها لا تعدو أن تكون اتباعاً لسياسات الدول وتقلب مصالحها وهي لا تشذ عن أهواء حاكميها الساقطة الهابطة، ظلمات بعضها فوق بعض، فَمِن حق العقلاء إذاً أن يصونوا دينهم ويمتثلوا قول القائل : أَوَ كلَّما جاءنا رجل هو أجدلُ من رجل تركنا ديننا لقول فلان؟ لا والله! لَلحق أحقُّ أن يتبع ولَلصدق حقيقٌ بأن يُستمع.

فدع عنك قيل وقال فلن...تجرَّ على المرء غير الندم
ولا تجعل الحقَّ منك على...شفا جرفٍ ساقطٍ منهدم
تقسِّمه بين ربٍ كريمٍ...وبين طغاةٍ عتاةٍ نَعَم
تدنس إشراقه بالضلال... وتهوي به من أعالي القمم
فلا تركننَّ لباغٍ عتى...فتمسسك نارٌ بها مَن ظلَم
وقل قال ربي فَعُضُّوا بها...فما النّور في شرعنا كالظُّلَم
وسر ثابت القلب لا تخشهم...وقل صدق الله ثم استقم

وتستمر معركة الشبهات

هذا وكلما اشتدت جذوة الجهاد توهجاً، وكاد سنا برقه يذهب بالأبصار، وأصبحت أفئدة عامة المسلمين تهوي إليه، ونَفَر إليه النافرون من كل فجٍّ عميق- ازداد صخب الشبهات التي يراد بها التهويش عليه، وبث الاضطراب بين أهله والقائمين بأدائه، واتخذ كثير من القاعدين لأنفسهم حجة يدفعون بها عن أنفسهم ويلقنونها غيرَهم ويلقونها في طريقهم، لا سيما وأن تلك الشبهات هي في أغلبها مما يستحسنه الطغاة الذين تضعضت عروشهم وبليت نُظمهم وسئمها القريب والبعيد، ومع أن بعض ما يثار منها ليس جديداً إلا أن الجديد هو إحياؤها والنفخ فيها وتدعيمها بأنواع المحسِّنات والمرغِّبات والمزينات التي تجتذب الناظر إليها وتأخذ بلُبِّ مستمعها، ورواج مثلها ليس بغريب ولا

عجيب كما قال تعالى: {وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لهم}[التوبة/47]، وقد قـال تعـالى عن المنـافقين: {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُـكَ أَجْسَـامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ}[المنافقون/4].

وما دامت تلك الشبهات المعوِّقة متجـددة متولـدة ومتطـورة كل حينٍ، فلا يمكن للمـرء أن يتتبعها ويستقصـيها كلَّها أو يـأتي عليها جميعها ولو كان عالماً راسـخاً كما قـال الإمـام ابن القيم –رحمه الله- : (ولا يجب على العالم حل كلِّ شبهة تعـرض لكل أحد فـإن هذا لا آخر له)اهـ.

ولكن حـتى يبقى الحق ناصـعاً بينـاً أحببت تـدوين هـذه الكلمـات تثبيتـاً للمجاهـدين، ودحــراً لتخرصــاتٍ تحــاول أن تحجب النــور المــبين، وتجمــعَ كل شــاذٍّ نــادٍّ من الأقــوال وتؤلف بينه بطــرقٍ سقيمة ليحسب الظمآن سرابه ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، وتســـتحدِث دخائل تُلبِس الحق بالباطــــل، ثم قبل ذلك اتباعــــاً لمسلك القرآن الكريم الذي صان عبادة الجهاد بدفاعٍ قلَّ نظـيره في أكــثر العبــادات، بحيث لا تكـاد تجد غــزوة من الغــزوات – لا سيما التي يكـون فيها تعبٌ ظـاهرٌ وجـروحٌ داميـةٌ - إلا ويصـاحبها ذبٌّ عن الجهاد والمجاهدين، وإبطالٌ صـارمٌ لمتعلِّقـات القاعـدين والمنافقين، ويشنُّ عليهم هجمـاتٍ ماحقـةٍ لا تبقي ولا تـذر حـتى يُرجِع حجتهم داحضةً وهم داخرون.

ولكن مما ينبغي التنبه له والتنبيه عليه أن الاســتنفار لــرد جــراد الشبهات المنتشر يجب أن يكون مصـاحباً لـدحر جيـوش الكفـرة وقتــالهم وليس بمشــغلٍ عنــه، فــإن ذلك مطلبٌ مهم بالنســبة للكفرة الذين لا يريـدون أكـثر من الحفـاظ على أنفسـهم وأمنهم حــتى ولو احتــدمت معركة الشــبهات لتصل إلى عَنــان الســماء، فالقلم يصاحب السيف ولا يحل محلَّه، والبيان والسنان قرينان لا يفترقان ولا يتدافعان، وهـذا هو المسـلك القـرآني الـذي يزيل ما يحدثه أهل النفـــاق والشـــقاق وأربــــاب القلــــوب المريضة من العقبات في طريق الجهاد والحجج الواهية التي يحـاولون الاتكـاء عليها في التنصل منـه، فـإن الآيـات الـتي تـدحض شـبههم تكـون متخللة للآيات التي تتحـدث عن وقـائع المعركة وتفصِّـل أحـداثها، بل بعضــها يتــنزل على النــبي صــلى الله عليه وســلم عند تهيئه للغزوة أو في طريقه إليها أو أثناء قفوله منهـا، فعلى المجاهـدين

المقاتلين في سائر الساحات أن يتفطنوا لهذا المكر الكبار الـذي يريد أعداء الله عز وجل أن يقحموهم في حماه، وهو أن يُشـغَلوا بـالرد على الشـبهات عن ضـرب الهامـات، ويقيمـوا القَلم مكـان السـيف، ويقتصـروا بـالحبر عن الـدم، ويسـتغنوا بـالأوراق عن الرِّقاق، وليحذروا أن تستنفد الردود طاقتهم لتكون على حسـاب الـنزول إلى سـاحات الـنزال، وليتـولَّ الـرد على شـطحاتهم الشـيطانية مَن بسط الله له في العلم وليبـقَ السـيف يحصد رؤوس أئمة الكفر الذين يوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم، فيتحقق فيكم قوله تعالى : {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُـونَ لِيَنْفِـرُوا كَافَّةً فَلَـوْلَا نَفَـرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ}[التوبة/122].

حآجُّوهم بالإجماعات

كي لا تتفرع الشبهات ويتولد بعضـها من بعضٍ ويضـيع المـرء في متاهات المناقشـات الطويلة فينبغي الاستمسـاك أولاً بالمسـائل المجمع عليها والتي نص عليها العلمـاء بعبـارات واضـحة فصـيحة صريحة بحيث تبقى هي قطب الـرحى الـتي عليها المـدار، فمهما طرح بعد ذلك من الإشكالات والاعتراضـات فإنما هي مكمِّلات لا تنقض الأصل ولا تُبطِلـه، وذلك لأن بعض من يتـولى كـبر اختلاق الشبهات وإثارتها يعمَد إلى بعض أخطـاء المجاهـدين الحقيقية أو الموهومة فيضخمها ويدنـدن حولها ويحـاول جهـده أن يعطِف كل أعمالهم عليها ويغمرها فيها، ويظهرهم للناس في صورة سـوداء قاتمة لا خـير فيها بل هي الشـرُّ كلُّه والفسـاد كلـه، ومرامه من ذلك الاعتراض بكل وسـيلة لإبطـال القيـام بعبـادة الجهـاد تحـتى دعوى عدم الجدوى، أو أن إثمها أكبر من نفعها، ثم أصبح الاتجـاه العام للشبهات أخيراً هو التركيز على عدم الشرعية أصلاً، خاصة فيما يتعلق بقتـال الحكومـات المرتـدة المتسـلطة على بلـدان المسـلمين، لا سـيما مع موجة شـعارات الانفتـاح والمصـالحة والمصارحة والحوار وهي إحدى ثمرات الضربات الـتي تلقتها تلك الأنظمة المسـتبدة الـتي لم تكن تعـرف إلا سياسة واحـدة {مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْـدِيكُمْ إِلَّا سَـبِيلَ الرَّشَـادِ}[غـافر/29]، ومثلهـا: {لَئِنِ اتَّخَـذْتَ إِلَهًا غَيْـرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْـجُونِينَ}

[الشعراء/29] ولكن يأبى القوم إلا أن يجعلوا هذه (الحسنة) هي من خالص هبات وعطيات أولئك الطغاة العتاة التي أتحفـوهم بها وأكرموهم بنوالها، ونحن نقـول لهم إن مجـاملاتهم لكم لن تـدوم ومسايراتهم لن تستمر، فإنما هي طفرة عابرة اقتضـتها ظـروف طارئة فتكيفـوا معها لطلب مصـلحتهم هم لا مصـالحتكم، فهـؤلاء المجرمــون قد رضــعوا النذالة والطغيــان والبغي وتوارثوها فيما بينهم، وشـــبت أنظمتهم وشـــابت على سياســـات العتو والقهر والكبت، والشـــــجرة الخبيثة لا يقطع خبثها إلا اجتثاثها من الأرض فلا يبقى لها قرار ومحاولة تحسـينها وتطييبها ضـرب من العبث : {وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَـةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَـوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ}[إبراهيم/26]، فالحقيقة الكامنة في صدورهم والتي لا يجــدون عنها فكاكــاً هي ما ذكرها الله لنا في حق أمثــالهم حيث يقول جل وعلا :{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَـةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَـأْلُونَكُمْ خَبَـالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَـدْ بَـدَتِ الْبَغْضَـاءُ مِنْ أَفْـوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآَيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ * هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُـوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}[آل عمران/118، 119].

فعلى الناصح لنفسه ولأمته أن يضع هــــذا الأمر نصب عينيه ولا ينخدع بدعاوى زائفة، أو مظـاهر خادعـة، أو سياسـات كاذبـة، ولا يغريه انسـياقهم وراء ظـرفٍ عـابرٍ لا يتوافق أبـداً مع ما طبعت عليه نفوسـهم، فيتّخـذه ملاذاً ويعـدَّه مفـازاً فيتشـبث به تشـبث الغريق بالقشَّة التي لن يزداد بها إلا رهقاً وغرقاً : {إِنْ يَثْقَفُـوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّـوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ}[الممتحنة/2].

الإجمـــاع الأول: اتفق العلمـــاء قاطبـــةً على أنَّ مَن اتخذ له مرجعاً غير كتاب الله وسنة نبيه صـلى الله عليه وسـلم، يحلل به الحرام المجمع عليه، أو يحرم به الحلال المجمع عليه، فهو كـافرٌ يجب قتاله حتى يرجع إلى الحق ويستسلم وينقـاد ويـذعن للـدين الذي لا يقبل الله من المـرء سـواه، وسـواء سُـمي ذلك المرجـعُ قانوناً، أو دسـتوراً، أو نظامـاً، أو عرفـاً، أو عـادةً، أو مرسـوماً، أو ياسقاً، أو غيرها، فكلُ ذلك في الحُكم سواء، فالعبرة في شـرعنا

بالحقـائق والمسـميات لا بالرسـوم والأسـماء، وسـواء كـان ذلك المرجعُ عالمياً أو إقليمياً أو محلياً أو قبلياً، ففي كل هذه الحالات لا يخـرج عن كونه حكمـاً جاهليـاً بنص القـرآن ووصـفه كما قـال أحكم الحـاكمين: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُـونَ وَمَنْ أَحْسَـنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَـوْمٍ يُوقِنُـونَ}[المائـدة/50]، فلا طريق إلى التلفيق والتوفيق فإما حكم الله الذي أوحاه لنبيه صـلى الله عليه وسـلم وإما حكم الجاهلية الجهلاء مهما ازَّينت وتبخترت وتطوَّرت.

قـال العلامة الإمـام ابن كثـير رحمه الله : [ينكر تعـالى على من خرج عن حكم الله المُحْكَم المشتمل على كل خـير، النـاهي عن كل شر وعـدل إلى ما سـواه من الآراء والأهـواء والاصـطلاحات، التي وضـعها الرجـال بلا مسـتندٍ من شـريعة اللـه، كما كـان أهل الجاهلية يحكمـون به من الضـلالات والجهـالات، مما يضـعونها بـآرائهم وأهـوائهم، وكما يحكم به التتـار من السياسـات الملكية المـأخوذة عن ملكهم جنكزخـان، الـذي وضع لهم اليَسـاق وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها عن شرائع شـتى، من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية، وفيها كثير من الأحكـام أخـذها من مجـرد نظـره وهـواه، فصـارت في بنيه شـرعًا متبعًـا، يقـدمونها على الحكم بكتـاب الله وسـنة رسـوله صـلى الله عليه وسلم. ومن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله، حتى يرجع إلى حكم الله ورسـوله صـلى الله عليه وسـلم فلا يحكم سـواه في قليل ولا كثير](تفسير ابن كثير : 3 / 131).

وقال -رحمه الله- بعدما نقل نُتفـاً مما جـاء في ياسق جنكزخـان من القـوانين : [وفي ذلك كله مخالفة لشـرائع الله المنزلة على عباده الأنبياء عليهم الصلاة والسـلام، فمن تـرك الشـرع المحكم المنزل على محمد بن عبد الله خـاتم الأنبيـاء وتحـاكم إلى غـيره من الشـرائع المنسـوخة كفـر، فكيف بمن تحـاكم إلى الياسا وقـدمها عليـه؟ من فعل ذلك كفر بإجمـاع المسـلمين.](البداية والنهاية: 13 / 139).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله- : [والإنسان مـتى حلل الحرام - المجمع عليه - أو حـرم الحلال - المجمع عليه - أو بـدل الشـرع - المجمع عليه - كـان كـافراً مرتـداً باتفـاق الفقهـاء](مجموع الفتاوى:3 / 267).

ولا شك أن الدساتير (المحلية والعالمية) التي تساس بها الدول وتتحاكم إليها وتتخذها مرجعاً لفض منازعاتها قد وضعها الواضعون بمجرد نظرهم وأهوائهم فصارت فيما بينهم شرعاً متبعاً حتى سمَّوه هم أنفسهم (بالشرعية الدولية)، وأصبحت تلك الشرعية معياراً على الالتزام والتمسك والانقياد لقوانينهم فتراهم يصفون بعض الدول بأنها خارجة عن الشرعية الدولية، أو مناقضة للشرعية الدولية، أو مخالفة للشرعية الدولية وهلم جرا من الأوصاف التي تدل على أن تلك الشرعية صارت هي الميزان والأصل الذي تُقوَّم به سياسات الدول، ومع ذلك فتراهم بين الحين والحين يغيّرون ويبدلون، ويؤصِّلون وينقضون، وتسمع من داخلهم أيضاً صيحاتٍ تنادي بتغيير الدستور أو إصلاحه، ولو كان شرعاً مُحكماً و ديناً قيماً لما تجرأ أحدٌ –مهما كان- بأن يدعو إلى تغييره أو تبديله أو همزه ولمزه، فلهم دينهم ولنا ديننا، ولهم دستورهم ولنا كتابنا الذي :{لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ}[فصلت/42]، ولهم شرائعهم وأهواؤهم ولنا شريعتنا التي أوحاها الله لنبيه صلى الله عليه وسلم وقال له فيها : {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (18)ـ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ}[الجاثية/18، 19].

ومِن عجائب القوم التي تكشف لك هشاشة الأفهام واستحسانها الباطل بمجرد الأوهام، كما أنها تُظهر مدى تأثير الأسماء في ترويج الباطل وتسويقه وعدم الشعور بشناعته بل ربما تقود إلى استملاحه والدعوة إليه: أنك لو افترضت لهم دولةً من (الدول الإسلامية) القائمة اليوم قد ارتضت صراحةً بأن يكون قانونها (دستورها) هو التوراة أو الإنجيل أوالزبور لمَادت الأرض بمن فيها استنكاراً واستعظاماً واستعاذةً من شر هذا الكفر الأكبر المستبين!، ولأطبق الناس أجمعون أكتعون أبتعون عالمهم وجاهلهم خواصُّهم وعوامهم على كفر الداعي لذلك والراضي به والمدافع عنه من غير ترددٍ، هذا مع أن التوراة والإنجيل في أصلها كتبٌ منزلةٌ من عند الله على رسولين من أولي العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام وإنما حرَّفها المحرِّفون (بمجرد

نظرهم وأهوائهم) ليشتروا به ثمناً قليلاً، ولا يزال فيها شـيءٌ مما أقره القرآن أو صدَّقه، هـذا في الـوقت الـذي تجد فيه كثـيراً من الـدعاة المرمـوقين وحركـات إسـلامية تنـادي بتحكيم الدساتير الوضـعية أو التحـاكم إليها عند الخصـام والـتي لا يشك شـاكٌّ أن قوانينها وبنودها قد وُضـعت تبعـاً للأهـواء وتلبية للشـهوات، ومِن إناسٍ لا علم لهم لا بـدينٍ ولا شـريعةٍ ولا حلالٍ ولا حـرامٍ فهم لم يستحقوا حـتى صـفة الأحبـار والرهبـان بل تجـدهم أجهلَ الجهلاء وأسفه السفهاء، وما يتشـدقون به من المعـارف والعلـوم فإنه لا يغني من الحق شيئاً : {يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآَخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ}[الروم/7].

فقطعـاً لا تمت تلك الدسـاتير إلى الشـرع والـدين بصـلةٍ، وما مـزجت به من بعض أحكـام الملة الإسـلامية فهو على طريقة الياسق الـتي سـبقهم إليها عبقـري الياسـقات ومبتكرها جنكيزخان!، فهم وإن كانوا في القرن الحادي والعشـرين إلا أنهم لم يأتوا بجديدٍ سوى تطور المـزج والخلط تبعـاً لتشـعّب الأهـواء وسُعار الشهوات، وقد أشار الإمـام ابن كثـيرٍ رحمه الله إلى هـذا المعنى فيما نقلته أعلاه بقوله :(وتحـاكم إلى غـيره من الشـرائع المنسوخة كفر، فكيف بمن تحاكم إلى الياسا وقـدمها عليـه)أهـ. ونحن نقـول فكيف بمن تحـاكم إلى الدسـاتير الوضـعية وقـدّمها على شريعة الرحمن؟!

والمجاهدون حينما يتكلمون عن كفر هذه الدول المحللة للحـرام المجمع عليه والمحرمة للحلال المجمع عليه ليسـوا هم أولَ من يطرق هذه المسألة كما أنهم لم يختصوا بالحديث عنها فما زالت كتب العلماء المعاصرين شاهدةً ناطقةً بما يسيرون عليـه، إلا أن البعض لمَّا طال عليهم الأمـد، ورأوا أن هـذه الـدول قد اسـتحكم أمرها وتمكَّن شرُّها، وألف الناس حالها، بدأوا يبحثون عن مخارجَ (شرعية) تعيد لهـذه الأنظمة شـرعيتها حـتى يُعفـوا أنفسـهم من قـول كلمة الحق المُـرَّة الـتي تواجه الباطـلَ بما فيه فبـدأ جيش الشبهات يزحف على هذا الأمر المقطوع به المجمع عليه ليُـدْخَل دائرة التشكيك والمناقشات والأخذ والرد:

كناطح صخرة يوماً ليوهنها ...فلم يضرها وأوهى قرنه الوعِلُ.

قال العلامة أحمد شاكر –رحمه الله- معلقاً على كلام الإمـام ابن كثير –رحمه الله- :[أفـرأيتم هـذا الوصف القـوي من الحافظ ابن كثير –في القرن الثامن- لذاك القانون الوضعي الذي صنعه عــدو الإسلام جنكزخان؟ ألستم ترونه يصف حـال المسـلمين في هـذا العصر، وفي القـرن الرابع عشـر؟ إلا في فـرق واحد أشـرنا إليه آنفا: أن ذلك كان في طبقة خاصة من الحكـام. أتى عليها الـزمن سريعا، فاندمجت في الأمة الإسلامية وزال أثر ما صنعت.
ثم كان المسلمون الآن أسوأ حــالا وأشد ظلما وظلاما منهم. لأن أكــثر الأمم الإســلامية الآن تنــدمج في هــذه القــوانين المخالفة للشريعة، والتي هي أشبه شيء بذاك "الياسـق" الـذي اصـطنعه رجل كـافر ظـاهر الكفـر. هـذه القـوانين الـتي يصـطنعها نـاس ينتسبون للإسلام، ثم يتعلمها أبناء المسلمين ويفخرون بذلك آبـاء وأبنـــاء، ثم يجعلـــون مـــرد أمـــرهم إلى معتنقي هـــذا "الياسق العصـــري"! ويحقـــرون من يخـــالفهم في ذلـــك، ويســـمون من يدعوهم إلى الاستمساك بدينهم وشـريعتهم "رجعيـاً" و "جامـداً" إلى مثل ذلك من الألفاظ البذيئة.
بل إنهم أدخلـــوا أيـــديهم فيما بقي من الحكم من التشـــريع الإسلامي، يريدون تحويله إلى "ياسـقهم الجديـد"، بالهوينا واللين تارة، وبـالمكر والخديعة تـارة، وبما ملكت أيـديهم من السـلطات تـارات، ويصـرحون – ولا يسـتحيون- بـأنهم يعملـون على فصل الدين عن الدولة!!
....إن الأمر في هذه القـوانين الوضـعية واضح وضـوح الشـمس، هي كفر بـــواح، لا خفـــاء فيه ولا مـــداورة، ولا عـــذر لأحد ممن ينتسبون للإسلام –كائنا من كان- في العمل بها أو الخضوع لها أو إقرارها. فليحذر امرؤ لنفسه و "كل امرئ حسيب نفسه"](عمدة التفسير: 1/697).
وقـــال العلامة محمد الأمين الشـــنقيطي –رحمه الله - : [فليعلم كل إنسان أن للشيطان مذهبا وقانونا وشرعا وضعه على ألســنة أوليائه من مـــردة الإنس، ولخـــالق الســماوات والأرض نظاما وشرعا: نورا منزلا من السماء شـرعه على على ألسـنة أوليائـه، فالذين يعدلون عن نور الله الذي شـرعه على ألسـنة أوليائه إلى تشـريع الشـيطان الـذي شـرعه على ألسـنة أوليائه داخلـون في

قوله : "قد استكثرتم من الإنس"، وداخلون في قوله " ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون" سواء سموا ذلك قانونا، أو سموه نظاما، أو تشريعا؛ لأن خالق السماوات والأرض لا يقبل أن يعبد إلا بما شرع؛ لأنه ملك الملوك لا يقبل غير شرعه وتشريعه كما قال: "أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله" ، "قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون"، فالحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله، والدين ما شرعه الله، وكل من يتبع نظاما شيطانيا وضعه الشيطان على مردة شياطين الإنس من أوليائه فإنه يوم القيامة صائر إلى النار داخل في قوله: "ولقد أضل منكم جبلا كثيرا"، وفي قوله : "يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس"...فكل تشريع غير تشريع الله، وكل نظام غير نظام السماء الذي يمشي عليه كأنه يقول: تشريع خالق السماوات والأرض أفضل منه تشريع غيره!! فهو ينزل درجة الخالق –جل وعلا، سبحانه عن ذلك وتعالى علوا كبيرا- إلى أن أوضاعا ملفقة من أذهان الكفرة الفجرة الخنازير أنه أحسن من تشريع الله!! ولذا يعدلون عن نور القرآن والسنة النبوية الصحيحة إلى ما يسمونه قانونا ونظاما وضعه أبناء الكلاب القردة الخنازير من اجتهاداتهم، تارة يحرمون ما أحل الله صريحا، ويحللون ما حرم الله صريحا، يزعمون أن الهدى في هذا!! هذا –والعياذ بالله- من أشنع الكفر والطغيان على الله، والتمرد على نظام السماء، واحتقار الخالق- جلا وعلا- حيث كان تشريعه لا ينفع، وتشريع غيره من سفلة الخنازير أحسن من تشريعه!! وهذا إنما وقع والعياذ بالله- بسبب طمس البصيرة؛ لأن نور البصيرة إذا طمس من قلب الإنسان صار يرى الباطل حقا، والحق باطلا، والحسن قبيحاً، والقبيح حسناً، والذين يعدلون عن نور الله يطلبون النور في تشريع المخلوقين هم في الحقيقة –بالكلمة التي هي بمعنى الحرف الصحيح- هم خفافيش البصائر، أعماهم ضوء القرآن فصاروا يطلبون الضياء في ظلام أفكار الكفرة الفجرة](العذب النمير : 2/637).

وقال العلامة أحمد شاكر –رحمه الله- بعدما ذكر صورا من مناقضة القوانين الوضعية لبعض قطعيات الإسلام مناقضة باتة:

[وكل هذه الأشياء وأمثالها تحليل لما حرم الله، واستهانة بحدود الله، وإنفلات من الإسلام، وكلها حرب على عقائد المسلمين، وكله تعطيل لفروض الدين]اهـ.
وكلام العلماء في هذه المسألة المقطوع بها كثيرٌ وفيرٌ.
فهل يستطيع أحدٌ القول بأن دستور ليبيا، أو الجزائر، أو تونس، أو موريتانيا، أو المغرب، أو مصر، أو اليمن وغيرها هو دستورٌ قائمٌ على كتاب الله وسنة نبيه الصحيحة، فيجب على العباد اتباعه والاستسلام له والإقرار به؟ أم أن جميعها (ياسقات عصرية) استحسنتها عقولٌ فاسدة كاسدة، واستوردتها من أفكار الكلاب القردة الخنازير –كما وصفهم الشنقيطي- ثم فرضوها على العباد فحللوا بها الحرام، وحرموا بها الحلال وبدَّلوا بها الدين ونقضوا بها الشرائع؟!!
ثم لو فرضنا جدلاً أن تلك الدساتير المكتوبة قد دوِّنت جميع حروفها وسطِّرت أسطرها بما يتطابق مع الشرع الإسلامي الحنيف ثم غلِّف ذلك الدستور بأفخر أردية الحرير، وصِينَ في صناديق من ذهبٍ، وبخِّر وطيب آناء الليل وأطراف النهار بأجود أنواع الطيب، ولا يمسه إلا المتطهرون، وبقيت الدولة تفتخر به وتظهر قداسته وفخامتَه، إلا أن الواقع الذي يراه الناس ويعيشونه ويتعاملون معه في حياتهم العامة منسلخٌ انسلاخاً تاماً عن دين الإسلام ومناقضٌ مناقضةً جليةً لبنود (الدستور المقدَّس)، وسياسة الحكومات المتعاقبة على تلك الدول المقدِّسة لذلك الدستور جارية على الأهواء ومحاربة الدين وتدمير عقائد المسلمين وهدم أخلاقهم عبر وسائل الإعلام ومناهج التعليم وجنود القمع، وتسليط الكفرة الفجرة على أهل الحق يسومونهم سوء العذاب، وتعلن صراحة ولاءها لدول الكفر وتمارس ذلك الولاء عملياً بصورٍ شتى، ولا تجدها عند المواقف إلا في عدوة أعداء الله تعالى، فماذا يغني بعد هذا كله التفاخر بذلك الدستور، وماذا سيستفيد المسلمون المقهورن المشردون من تقديس ذلك الدستور، وهل يخرج ذلك عن كونه استهزاء بالشرع واستخفافاً بعقول الناس وإهداراً لجهود المخلصين ليقضوا أعمارهم النفيسة في المطالبة بتطبيق الدستور، فتدهمهم وتدهم جماعاتهم الشيخوخةُ والهرم ويكونون حَرَضاً

وهم لا يزالــون يطــالبون بتطــبيق الدســتور!!، وأكــبر مكســبٍ يفتخــرون به ويعدونه النصر المـؤزر وفتح الفتـوح يـومَ أن يثبتـوا (عبر القنـوات الرسـمية) أن الحكومة في موقف من مواقفها أو سياسة من سياساتها قد خـالفت ما نصَّ عليه الدسـتور، ولسـان حال تلك الحكومة يقول لهم: فليكن ذلك ثم كان ماذا؟

ولا تجدهم يتجرأون ليقولـوا إن الحكومة في سياسـاتها ومواقفها وعلاقاتها قد خالفت نصوص القرآن القطعية، أو ناقضت أحـاديث النبي صلى الله عليه وسلم الصـحيحة الصـريحة، وهـذا مما يـبين لك أن الــدعوة صــارت في كثــير من أحايينها دعــوة دســتورية وليست دعوة ربانية تريد إخـراج النـاس من الظلمـات إلى النـور ومن الضـلال إلى الهـدى، وإلا فَلِمَ سـلوك هـذه الطريق الطويلة العوجـاء في دعــوة النــاس، ولِمَ لا نــدعوهم صـراحة إلى تحكيم الشــرع والرجــوع إلى مصــادره المعروفة بأســمائها عند جميع المسلمين (كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم) وقد قال تعالى : {إِنَّ هَذَا الْقُرْآَنَ يَهْـدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْـوَمُ وَيُبَشِّـرُ الْمُـؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا}[الإسراء/9].

ومنذ قرابة القرن كتب العلامة أحمد شاكر –رحمه اللـه- رسـالته المعروفة (الكتـاب والسـنة يجب أن يكونا مصـدر القــوانين في مصــــر) وذكر تسلسل تســــلل تلك القــــوانين اللعينة إلى بلاد المســلمين وكيف مســخت العقــول وطمست الهوية وأنتكست معها الفطـر، وحـذر أشد التحـذير من مغبة اسـتمرار اسـتيرادها وفرضها، وأن ذلك مدعاة إلى اقتلاع الإسلام من بلاد المسـلمين، ومع هذا فلم تجد دعواته وصـرخاته آذانا صـاغية ولا قلوبا واعيـة، فما ازداد عباد تلك القوانين والمفتونون بها إلا صَلفاً حتى أغرقوا بها البلاد وصلوا بجحيمها العباد، فكـان مما قاله في رسـالته :[إن هــذه القــوانين الأجنبية كـادت تقضي على ما بقي في أمتكم من دين وخلق، فـأبيحت الأعـراض، وسـفكت الـدماء. لم تنه فاسـقا، ولم تزجر مجرمــا، حــتى اكتظت السـجون، وصــارت مــدارس لإخراج زعماء المجرمين .ونـزعت من النـاس الغـيرة والرجولة ، وأمتلأ البلد بــالمراقص والمواخــير، وشـاع الاختلاط بين الرجــال والنسـاء، حـتى لا مزدجر .وصـرتم تـرون ما تـرون، وتقـرؤون ما تقــرؤون في الصــحف والمجلات والكتب بما يســرت من ســبل

الشهوات وبما حمت من الإباحية السافرة المستهترة وبما نزعت من القلــوب الإيمــان حــتى صــار المنكر معروفــاً والمعــروف منكرا]اهـ فكيف لو رأى ما وصلت إليه بلاد المسلمين اليوم ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الإجماع الثاني : اتفق العلمـاء قاطبـةً على أن الولاية لا تنعقد لكـافرٍ، وأنه لو طـرأ على الإمـام كفـرٌ انعـزل به ووجب الخـروج عليه وخلعه عند الاستطاعة.

قـال الإمـام ابن المنـذر -رحمه الله- : [أجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم أن الكـافر لا ولاية له على مسـلم بحـال](أحكـام أهل الذمة : 2/ 414)

وقال الإمام النووي –رحمه الله- : [قَالَ الْقَاضِـي عِيَـاض : أَجْمَـعَ الْعُلَمَاء عَلَى أَنَّ الْإِمَامَة لَا تَنْعَقِد لِكَـافِرٍ، وَعَلَى أَنَّهُ لَـوْ طَـرَأَ عَلَيْـهِ الْكُفْر اِنْعَزَلَ، قَالَ : وَكَذَا لَوْ تَرَكَ إِقَامَة الصَّلَوَات وَالدُّعَاء إِلَيْهَا ... قَالَ الْقَاضِي : فَلَوْ طَرَأَ عَلَيْـهِ كُفْر وَتَغْيِـير لِلشَّـرْع أَوْ بِدْعَة خَـرَجَ عَنْ حُكْم الْوِلَايَة، وَسَقَطَتْ طَاعَته، وَوَجَبَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الْقِيَام عَلَيْهِ وَخَلْعه وَنَصْب إِمَام عَادِل إِنْ أَمْكَنَهُمْ ذَلِكَ، فَإِنْ لَمْ يَقَع ذَلِـكَ إِلَّا لِطَائِفَةٍ وَجَبَ عَلَيْهِمْ الْقِيَام بِخَلْعِ الْكَافِر، وَلَا يَجِب فِي الْمُبْتَـدِع إِلَّا إِذَا ظَنُّوا الْقُـدْرَة عَلَيْـهِ، فَـإِنْ تَحَقَّقُـوا الْعَجْز لَمْ يَجِب الْقِيَـام، وَلْيُهَاجِرْ الْمُسْلِم عَنْ أَرْضه إِلَى غَيْرهَا ، وَيَفِرّ بِدِينِهِ](شرح النووي على مسلم : 6 / 314).

وقال العلامة الملا علي القاري –رحمه الله- : [وأجمعـوا على أن الإمامة لا تنعقد لكافر ولو طـرأ عليه الكفر انعـزل وكـذا لو تـرك إقامة الصلوات والدعاء إليها وكـذا البدعـة..](مرقـاة المفـاتيح : 11 / 303)، ثم نقل كلام القاضي المذكور آنفاً.

وكلام هؤلاء الأئمة يتضمن أمرين : الأول : أن انعزال الحاكم عن ولايته يحصل بمجـرد طروء الكفر عليـه، بمعـنى أن صـفة الولاية الشرعية تنتزع منه مباشرة بمجرد اتصافه بالكفر البــواح وتلبسه به، ومن آثار ذلك الانعزال أن لا يبقى في أعناق الناس شيءٌ من حقوق الولاة عليهم، فلا ولاية، ولا بيعـة، ولا سـمع ولا طاعـة، ولا يمضي له عقد، ولا يُلزم الناسَ بعهدٍ، فيكون في وادٍ والنـاس في واد، فيتعامل المسلمون فيما بينهم وكأنه معـدومٌ، وعليه فوجـود الشوكة والقوة والتمكين وتقادم العهد وتسيير الأمـور واسـتقرار

الأحوال وبسط اليد وإدارة البلاد من قِبل الحاكم الكـافر لا يجعله بذلك والياً شرعياً؛ والعلماء متفقون على أن الإسلام من شروط الإمامة العظمى، فمن خلعه انخلع؛ لأن ثوب الولاية المعتـبرة قد نُزع منه بوقوعه في الكفر البين، وهذا ما يـدل عليه تعبـير الأئمة السـابق بقـولهم (انعـزل) وبقـولهم (خـرج عن حكم الولاية ، وسـقطت طاعتـه)، فالولاية الشـرعية والكفر لا يجتمعـان في شـخص، وكما قـال إمـام الحـرمين –رحمه اللـه- : [الإسـلام هو الأصل والعصـام فلو فـرض انسـلال الإمـام عن الـدين لم يخـفَ انخلاعه وارتفـاع منصـبه وانقطاعـه](غيـاث الأمم : 1 /75)، والإسـلام يـأمر بمقاتلة الكفَّار والـبراءة منهم ويحث على إبـداء العداوة والبغضاء لهم وينهى عن طـاعتهم ويحض على تحقـيرهم والغلظة عليهم، فكيف يأمر بعد هذا كله بقبـولهم أوليـاء يـأمرون وينهون، ويوقرون ويعظمون؟!!!

وهـذا يـبين لك ما يـزل فيه كثـيرٌ من النـاس المفتـونين بثقافة الغـرب والمتضـلعين من أفكـاره والمقتفين لآثـاره وبعض ما جـاراهم من الإسـلاميين من وصـفهم لِمن خلع ربقة الإسـلام من عنقه من الحكـام الكفـرة بـأنهم الرؤسـاء الشـرعيون، أو أنهم وصلوا إلى الحكم بطريقة شـرعية، أو هم ولاة الأمر المعتـبرون، أو أنهم اسـتحقوا هـذا المنصب باختيـار الشـعب، أو لاعـتراف (المجتمع الدولي) بهم، وغـير ذلك من الأوصـاف الـتي تـدل على إثبات صـفة الشـرعية لهم وهي الـتي نـزعت منهم ورفعت عنهم من حين وقوعهم في الكفر الأكبر المستبين.

ففـرقٌ بين العـزل والانعـزال، فـالأول يقتضي تكلفـاً وعملاً واجتهـاداً من قبل المسـلمين لإزاحة الحـاكم الكـافر من منصـبه وإقصـائه عن ولايته فلا تبقى له يـدٌ في إدارتها وتسـييرها وفعله متعـدٍ، وأما الانعـزال فمن معانيه عـدم بقـاء الصـفة الشـرعية للولاية في حق الكافر المتغلب، بمعنى أنه لم يعد واليـاً –ولو مع وجـوده وقوته وتمكنـه- يسـتحق شـيئاً من حقـوق الولايـة، لأن المعدوم شرعاً كالمعدوم حساً وفعله فعل مطاوعة لازم.

الثاني : وهو ما يترتب على هذا (الانعـدام الشـرعي) أو الانعـزال الـذي حصل للمتـولي الكـافر، وذلك وجـوب القيـام عليه وخلعه وتنصـيب إمـامٍ للمسـلمين يقـوم مقامه وهو ما عــبر عنه الأئمة

بقولهم فيما نقلناه آنفاً : (وَوَجَبَ عَلَى الْمُسْـلِمِينَ الْقِيَـام عَلَيْـهِ ، وَخَلْعه وَنَصْب إِمَـام عَـادِل)، فهـذا الحكم الشـرعي مبـنيٌ ومعلَّلٌ بالأمر الأول وهو وقوع الحاكم في الكفر.

ومعلومٌ أن الأئمة متفقون على وجوب تنصيب إمام للمسـلمين يأمن سبلهم ويحفظ بيضتهم ويقيم فيهم أحكـام الملـة، كما قـال الإمام القرطـبي –رحمه اللـه- عند قـول الله تعـالى : {وَإِذْ قَـالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَـةً} [البقـرة/30] قـال : [هذه الآية أصل في نصب إمام وخليفة يسـمع له ويطـاع، لتجتمع به الكلمة، وتنفذ به أحكام الخليفة. ولا خلاف في وجوب ذلك بين الأمة ولا بين الأئمة إلا ما روي عن الأصم حيث كان عن الشريعة أصم، وكذلك كل من قال بقوله واتبعه على رأيه ومذهبه](تفسير القرطبي : 1 / 264).

وهـذا الحكم يتأكد إن كـان منصب الإمامة قد تغلب عليه حـاكمٌ كــافرٌ وذلك لعظم المفســدة الــتي تــترتب على بقائه وتحكمــه، ففرقٌ بين شغور منصب الإمامة شغوراً حقيقيـاً لعـدم مَن يقـوم عليه وبين أن يسدَّه رجـلٌ كـافرٌ محـادٌّ لله ولرسـوله، فـإن ضـرر الثـاني على المسـلمين أشد وفسـاده أكـبر لدعوته النـاس إلى الكفر ترغيباً وترهيبـاً، وحسـده للمؤمـنين على ما آتـاهم الله من فضله كما قال تعالى : {مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْـلِ الْكِتَـابِ وَلَا الْمُشْــرِكِينَ أَنْ يُنَــزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْــرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [البقرة/105]، وقال عز وجل : {وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَـدًا مِنْ عِنْـدِ أَنْفُسِـهِمْ}[البقـرة/109]، وقـال سـبحانه وتعالى : {وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُـونَ سَـوَاءً}[النسـاء/89]، وقــال عز من قائل : {إِنْ يَثْقَفُــوكُمْ يَكُونُــوا لَكُمْ أَعْــدَاءً وَيَبْسُـطُوا إِلَيْكُمْ أَيْـدِيَهُمْ وَأَلْسِـنَتَهُمْ بِالسُّـوءِ وَوَدُّوا لَـوْ تَكْفُـرُونَ} [الممتحنة/2].

ويزداد الحكم تأكداً حينما يكون هذا الحاكم الكـافر مرتـداً، وذلك لأن المرتد أعظم كفراً من الكافر الأصلي بإجماع العلماء، ولذلك تغلظت العقوبة في حقه.

ومبنى إجماع وجوب خلع الحـاكم الكـافر هو حـديث النـبي صـلى الله عليه وسـلم، فعن عبـادة بن الصـامت رضي الله عنه قـال :

[بايعنا رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم على السـمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكــره وعلى أثـــرة علينا وأن لا ننــازع الأمر أهله إلا أن تــروا كفــراً بواحــاً عنــدكم من الله فيه برهــان وعلى أن نقــول بــالحق أينما كنا لا نخـاف في الله لومة لائم]رواه البخاري، ومسلم، وغيرهما.

قال الإمام ابن حجر –رحمه اللـه- : [وملخصه أنه ينعـزل بـالكفر إجماعاً، فيجب على كل مسلم القيـام في ذلـك، فمن قـوي على ذلك فله الثـــواب، ومن داهن فعليه الإثم، ومن عجز وجبت عليه الهجرة من تلك الأرض](فتح الباري : 13/123).

هـذا هو إذاً حكمُ الشـرع في حق الحـاكم إذا كفـر، أو الكـافر إذا تغلّب وصـارت مقاليد بلاد المسـلمين بيـده، ولينظر المنصف في حال الحكـام المتغلـبين على ديـار الإسـلام، والـذين طـالت محنة الإسلام والمسلمين بسيطرتهم، وهم الذين جعلوا أنفسهم أربابــاً يشرِّعون ويحللون ويحرمون، هذا مع انسـلاخهم عن كل أو أغلب الصفات التي اشترطها العلماء في حق إمام المسلمين.

ثم ماذا يستفيد الإسلام والمسلمون من رجــلٍ تسـمى باسم عبد الله أو محمد أو معمر أو حســـني أو الحسن أو الحســـين وهو صَلْعَمَةُ بنُ قَلْعَمَة (أي مجهول لا يعرف) لُكَع أحمق أخرق مجــرم سفاحٌ غشومٌ ظلومٌ يصبح ويمسي وهو للكفرة خاشع خاضعٌ راكعٌ ولأهل الـدين ممقتٌ مقتِّل منكِّلٌ مشـرد، وللـدين مبغضٌ مفسـدٌ محاربٌ معطِّلٌ مُهينٌ؟!!

وهل كُتب على الأجيـــال أن تفـــني أعمارها وهي بين الانتظـــار والاحتضـار والـتربص والتصـبر؟ وأن تعيش تحت كبت الجاهليـة، وجحيم القــوانين الإجراميــة، والاستسـلام للمتجـبرين الـذي لم يدخروا وسيلة من وسائل الاستذلال والإخضـاع إلا جربوهـا؟ ومَن الذي قال إن أبناء أمة الإسـلام المعـتزّين بالله قد ضـربت عليهم الذلة والمسـكنة أينما ثقفـوا، وأن يتسـلط عليهم من يسـومهم سوء العـذاب إلى يـوم القيامـة، وأن عليهم أن يتهيـوا في الأرض كـــلَّ أعمـــارهم ليبحثـــوا لهم عن ملجأ ومـــأمن يمُن به عليهم أعداؤهم في بلاد الغرب الكافر ويذروا بلادهم الإسلامية تصـطلي بسـعير الخـوف والـرعب والإجـرام والتنكيل الـذي يمارسه بدقة وعناية وإتقان وإصرار وحقد (ولاة الأمر!!).

ثم أعيد هنا ما ذكرته في بعض الأبحـــــاث الســـــابقة، وهو أن المعركة بين المجاهـدين وبين هـؤلاء المرتـدين ليست محصـورة في مسألة الخروج على الحاكم الكافر، فهذا –فيما أرى- تسطيح لهذه القضـية المعاصـرة الكـبرى وحَيْـدَةٌ بها إلى نقاشـات جزئية تأكل الأوقات والأوراق دون أن تكون علاجاً حقيقياً للمسألة، فإن هــؤلاء الحكـام قد تبـدّل كثـير منهم أو مـات أوقتل إلا أن حـال أنظمتهم وسياساتهم باقية على أساس تمرِّدها على الله وشرعه ومحاربتها لدينه وعباده، بل لا يذهب طاغية إلا ويأتي من هو شـرٌّ منه، وذلك لأن أصول تلك الدول وقواعدها وقوانينها راســخة في الكفر ضـــاربة في أعماقه وما على الحـــاكم الجديد الـــذي يلجها بانقلاب أو توريث أو انتخابات إلا أن يسير عليها ويلـتزم بهـا، وإن حصل تغيير فهو شـكليٌ يلـبي طموحـات الهـوى الجديـد، وتجديد الهـوى، ولا علاقة للإسـلام بـه، وعليه فـإن المعركة الحقيقية عند النظر إنما هي ضد هـــذا الواقع المتمـــرد على الله القـــائم على المشـاقة للحـقِّ المبـني أصـلاً على أسـاس الكفـر، فسـواء جـاء حاكمٌ أو ذهب آخر فـإن هـذا لا يغـير شـيئاً ما دامت تلك الأنظمة باقية حاكمةً، ومؤسسـاتها راسـخةً قائمـة، فـالواجب هو الخـروج على هذا الحكم الكـافر واقتلاعه من جـذوره واجتثاثه من أصـوله وليس فقط الخروج على الحاكم الكـافر، ومن هنا فلا أرى اليـوم وبـالنظر إلى واقع بلـدان المسـلمين كبـير فائـدة في نقاشـات مسـألة حكم الخـروج على هـؤلاء الحكـام وهل هم كفـروا أم لا، فإن ذلك لا ينفع المسلمين كثيراً؛ لأنهم ليسوا فقط محتاجين إلى حاكم مسلم وإنما هم بحاجة إلى حكم الإسـلام والـذي لا سـبيل إليه إلا باستئصـــال شــجرة الكفر الخبيثة الــتي تتغــذى منها تلك الــدول، وهـؤلاء الحكـام لم يكفـروا بتلبسـهم بنـاقض واحـدٍ من نــواقض الإســلام ولم يرتكبــوا ما ارتكبــوا من الكفر عن تأويــلٍ قاصدين الحق فخـانهم الفهم بل هم أصـلاً ما حكمـوا إلا ليكونـوا حرباً على الإسلام وما أقاموا دولهم العلمانية إلا ليحولــوا بها بين الشـعوب ودولتهم الإسـلامية، فهم في حقيقة أمـرهم اسـتعمارٌ متمكنٌ على رقاب العباد يمارس نفس ما كان يمارسه الاستعمار الغربي السافر حذو القذة بالقذة.

وإنه لمن الأجحاف حقاً بهذه المسـألة العظيمة الـتي هي انقلابٌ تامٌ على الإسلام، واتباع سبل متقنة وسياسات مرسومة للقضـاء عليه وإخراج أهله منه أن نختزلها في نقاشات فرعية نصـبح معها كأننا نسبح في الهـواء بعيـدين كل البعد عن الواقع العـاتي الـذي ينطق لسانه في كل جهةٍ برفضه للدين وإبائه لأحكامه واعتراضه على شرائعه وقبوله واستبشاره واسـتماتته في اعتنـاق وترسـيخ وتحكيم شـرائع الكفر في ثـوب (دين جديـد) ثم نظن أننا بـذلك نحسن صنعاً ونسير على (منهج السلف) الـذين نظلمهم ونسـيء إليهم بنسبة هذا التضليل الوبيل إليهم وهم منه بـراء، وقد أحسن العلامة الأديب المحققِّ محمـود شـاكر – طيب الله ثـراه – حينما تنبه لهذه النكتة فقـال : (فلم يكن سـؤالهم عما احتج به مبتدعة زماننا ، من القضـاء في الأمـوال والأعـراض والـدماء بقـانون مخالف لشريعة أهل الإسـلام، ولا في إصـدار قـانون ملـزم لأهل الإسلام، بالاحتكام إلى حكم غـير الله في كتابه وعلى لسـان نبيه صلى الله عليه وسلم ، فهذا الفعل إعراض عن حكم الله، ورغبة عن دينه وإيثار لأحكام أهل الكفر على حكم الله سبحانه وتعالى، وهـذا كفر لا يشك أحد من أهل القبلة على اختلافهم في تكفـير القائل به والداعي إليه.

والـذي نحن فيه اليـوم هو هجر لأحكـام الله عامة بلا اسـتثناء، وإيثار حكم غير حكمه في كتابه وسـنة نبيـه، وتعطيل لكل ما في شـريعة اللـه، بل بلغ الأمر مبلغ الاحتجـاج على تفضـيل أحكـام القـانون الموضـوع على أحكـام الله المنزلـة، وإدعـاء المحتجين بذلك بأن أحكـام الشـريعة إنما نـزلت لزمـان غـير زماننـا، ولعلل وأسباب انقضت فسقطت الأحكام كلها بانقضائها.)اهـ.

وتأمل قوله : (وهــــــذا كفر لا يشك أحد من أهل القبلة على اختلافهم في تكفير القائل به والداعي إليه)اهـ

فلم يطل العهد حتى انتُقِضت العُرى وخَرَقَ هـذا الإجمـاعَ الـذي يشمل جميع أهل القبلة عصابةٌ مِمن انتحلوا العِلم وأتقنوا إرجـاع المحكمات إلى المتشابهات وضرب الآيات بعضها ببعض فـأدخلوا هـذه المسـألة المقطـوع بحكمها شـرعاً في دائـرة ما يسـعُ فيه الخلاف ولم يقفـوا عند هـذا حـتى شـنوا حملة التشـنيع على من

خالفهم في زيغهم بل ربما تجرأ بعضهم وادّعى أن الإجمـاع على ما ذهب إليه من التخرصات الهابطة.
الإجماع الثالث : أجمع العلمـاء قاطبـةً على أن أي طائفـةٍ من الطوائف امتنعت عن شريعةٍ واحدةٍ من شرائع الإسلام الظـاهرة المتواترة، فإنه يجب قتالها، ولا يمنعُ من ذلك نطقها بالشهادتين.
وهي مسـألة معروفة مشـهورةٌ، وكلام العلمـاء فيها كثـيرٌ، فمن ذلك قول شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله- : [ويجـوز بل يجب بإجماع المسلمين قتال كل طائفة ممتنعة عن شريعة من شرائع الإســلام الظــاهرة المتــواترة مثل الطائفة الممتنعة عن إقامة الصلوات الخمس، أو عن أداء الزكاة، أو عن الصـيام المفـروض، ومثل من لا يمتنع عن سـفك دمــاء المسـلمين، وأخذ أمــوالهم بالباطل، ومثل ذوي الشـوكة المقيمين بـأرض لا يصلون بهـا، ولا يتحـاكمون بينهم بالشـرع الـذي بعث الله به رسـوله، ولا عنـدهم مسجدٍ، ولا يؤذنون ولا يزكون مع وجوبها عليهم، أو يقتل بعضــهم بعضـاً وينهب بعضـهم مـال بعض، ويقتلـون الأطفـال ويسـبونهم، ويتبعـون ما يسـنه الإفـرنج، وإذا دعي أحـدهم إلى الشـرع قـال: جاءنا الشرع، فهؤلاء يجب قتالهم كما أمر رسـول الله صـلى الله عليه وسلم بقتل الخوارج مع كون الصحابة رضي الله عنهم كـان أحـدهم يحقر صـلاته مع صـلاتهم وصـيامه مع صـيامهم، فقـاتلهم علي رضي الله عنه.
ويدعون قبل القتال إلى الـتزام شـرائع الإسـلام، فـإن التزموها اسـتوثق منهم ولم يكتف بمجـرد قـولهم، بل تـنزع منهم الخيل والسـلاح كما فعل أبو بكر رضي الله عنه بأهل الـردة حـتى يـرى منهم السلم، ويرسل إليهم من يعلمهم الإسلام ويقيم بها الصلاة، ويستخدم بعض المطيعين منهم في جند المسلمين، ويجعلهم في جماعة المسلمين، ويمنعون من ركوب الخيل وأخذ السلاح حــتى يستقيموا، فإن لم يستجيبوا لله ورسـوله وإلا وجب قتـالهم حـتى يلتزموا شرائع الإسلام الظـاهرة المتـواترة وهـذا متفق عليه بين علماء الإسلام](مختصر الفتاوى المصرية: 468)
وقــــال –رحمه الله - : [وقد اتفق علمـــاء المســـلمين على أن الطائفة الممتنعة إذا امتنعت عن بعض واجبات الإسلام الظـاهرة المتواترة فإنه يجب قتالهـا، إذا تكلمـوا بالشـهادتين وامتنعـوا عن

الصلاة والزكاة أو صيام شهر رمضان، أو حج البيت العتيق، أو عن الحكم بينهم بالكتاب والسنة، أو عن تحريم الفواحش أو الخمر، أو نكاح ذوات المحارم، أو عن استحلال النفوس والأموال بغير حق، أو الربا أو الميسر، أو عن الجهاد للكفار، أو عن ضربهم الجزية على أهل الكتاب ونحو ذلك من شرائع الإسلام فإنهم يقاتلون عليها حتى يكون الدين كله لله]اهـ.

ومعلومٌ أن ما تمارسه وتقوم به أجهزة الدول من استخبارات وجيش وشُرَط ليس هو فقط حماية الحاكم الكافر المتغلِّب على بلدان المسلمين، بل هي الركن الركين لحماية أنظمة وقوانين ودساتير تلك الدول، ولا يتوقف شرُّها عند هذا الحد بل أضافت إليه إلزام الناس بقبول تلك الشرائع الكافرة وإجبارهم على التحاكم إليها، ومطاردة وملاحقة والتنكيل بكل من يعارضها ويعترض عليها، هذا مع مولاتها الظاهرة لكفرة الشرق والغرب واستتنانها بسننهم في النقير والقطمير، وكل منصفٍ يقطع قطعاً جازماً أن تلك الأجهزة لم تؤسس وتدرب من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا ولا ليكون الدين كله لله، ولا يعنيها ذلك من قريب أو بعيد، فمَن الذي يحول بين الناس وبين أن يستظلوا بحكم الشرع وينعموا برحمته إن لم تكن هذه الطوائف الممتنعة الصادة عن سبيل الله؟!!.

فما من داعية ولا جماعة إسلامية اليوم إلا وتدعو للتحاكم إلى شرع الله، والرجوع إلى دينه، وتسعى لاسترداد حكمه، فهو إجماعٌ منهم على أن الشرع معطلٌ -وإن كان بدرجات متفاوتة- فَلِم نفر من الجواب الصريح حينما يسأل السائل بوضوح : مَن الذي يحول بين المسلمين وبين عيشهم تحت حكم الله تعالى؟! من الذي يتولى حماية منابع الهدم التي زعزعت عقائد المسلمين ودمَّرت أخلاقهم ومسخت أفكارهم؟ مَن الذي يقوم على حماية الشرائع الوضعية والأحكام الأرضية التي يُلزَم الناس بأن يكونوا تحتها ويرغمون على التقاضي إليها؟ مَن الذي يملأ الطرق بأسلحته و(هراواته) وغازاته ومياهه الساخنة إذا ما تحرَّك الناس معترضين على فقرة من فقرات الدستور الوضعي أو مطالبين بإقامة شريعة رب العالمين؟ مَن الذي ينتهض مباشرة ومن غير أدنى تردد أو اعتراض لينفِّذ أوامر الساسة المجرمين

التي يذلون بها الشعوب كائنةً ما كـانت تلك الأوامر سـواء كـانت سـفكاً للـدماء، أو تهـديماً للمسـاجد، أو تحريقـاً للمـدارس، أو انتهاكاً للأعراض، أو تمزيقـاً للحجـاب والنقـاب، والحجة في ذلك أن المنفذ (عبـدٌ مـأمورٌ) ويحـرص أشد الحـرص على تنفيذ تلك الأوامر بحـذافيرها ويخشى تمـام الخشـية أن يفـرط في شـيءٍ منها؟

هل يستطيع أحدٌ –كائناً مَن كان- أن يبرِّء أجهزة الاسـتخبارت، أو الجيش، أو الشُـرط، أو الـدرك من تبعة هـذه الجـرائم الـتي يختصـرها شـيء واحـدٌ وهو (تعطيل شـريعة الله ومحاربة دينه وأوليائه).؟

فـإذا لم تكن هـذه الأجهـزة بمجموعها وهيئتها ونظمها وأهـدافها طوائف ممتنعة ينطبق عليها إجمـاع أولئك العلمـاء فـإن كلامهم ذاهبٌ في مهـاب الـريح، وليس له إلا أن يكـون حـبيس بطـون الكتب.

هذا ولا علاقة لإجماع العلماء بقتال الطوائف الممتنعة عن شرائع الإسـلام الظـاهرة المتـواترة بـاختلافهم في مسـألة تكفـير هـذه الطوائف من عدمها، حتى يحاول البعض أن يجعل الشيئين شـيئاً واحـداً، ويـدخل بعضـها في بعض، بحيث يكـون محل البحث والمناقشـات عنـده هـو: هل هـذه الطوائف مرتـدة أم لا؟ فـإذا توصل إلى عـدم القـول بردتها انتقل إلى النتيجة الـتي يريد الخلـوص إليها وهي عـدم جـواز قتالهـا، فلا ارتبـاط بين الأمـرين، فمنـاط وجـوب قتالها ليس هو ردتها وكفرهـا، وإنما امتناعها عن شريعة من شرائع الإسـلام الظـاهرة، فمـتى حصل هـذا الامتنـاع وكان منصـباً على شـريعة ظـاهرة وجب القتـال بإجمـاع العلمـاء سواء قيل بكفرها أم لا، كما قال الإمام أبو بكر الجصاص الحنفي –رحمه اللـه- : [... فـالمقيم على أكل الربا إن كـان مسـتحلا له فهو كـافر، وإن كـان ممتنعا بجماعة تعضـده سـار فيهم الإمـام بسـيرته في أهل الـردة إن كـانوا قبل ذلك من جملة أهل الملـة، وإن اعترفوا بتحريمه وفعلوه غير مستحلين له قـاتلهم الإمـام إن كـانوا ممتنعين حـتى يتوبـوا، وإن لم يكونـوا ممتنعين ردعهم عن ذلك بالضرب والحبس حتى ينتهوا.](أحكام القرآن للجصاص :1 / 572).

ولهـذا أزال شـيخ الإسـلام هـذه الشـبهة وذهب إلى أبعد من ذلك فقال في حق قتـال التتـار: [بل لو كـان فيهم قـوم صـالحون من خيار النـاس ولم يمكن قتـالهم إلا بقتل هـؤلاء لقتلـوا أيضـاً؛ فـإن الأئمة متفقون على أن الكفـار لو تترسـوا بمسـلمين وخيف على المسـلمين إذا لم يقـاتلوا؛ فإنه يجـوز أن نـرميهم ونقصد الكفار]اهـ.

الإجمـاع الرابع: اتفق العلمـاء قاطبـةً على أن العـدو إذا داهم بلدةً من بلاد المسلمين وجب على أهلها قتـالهم، فـإن عجـزوا أو قصَّروا وجب على مَن يليهم عونهم، وهكـذا يتسع الأمر حـتى ولو عمَّ الأرض كلها.

وهي مسألة معروفة مطروقة وكلام العلماء فيها شهيرٌ.

فمن ذلك : قـال إمـام الحـرمين –رحمه اللـه- : [فأما إذا وطئ الكفـار ديـار الإسـلام فقد اتفق حملة الشـريعة قاطبة على أنه يتعين على المسلمين أن يخفوا ويطيروا إلى مـدافعتهم زرافـات ووحـدانا حـتى انتهـوا إلى أن العبيد ينسـلون عن ربقة طاعة السادة، ويبادرون الجهاد على الاستبداد، وإذا كـان هـذا دين الأمة ومذهب الأئمة فأي مقدار الأموال في هجوم أمثال هـذه الاهـوال لو مست إليها الحاجة وأموال الدنيا لو قوبلت بقطـرة دم لم تعد لها ولم توازها](غياث الأمم:191).

قـال الإمـام ابن عبد الـبر –رحمه اللـه- : [الغـزو غـزوان: غـزو فرض، وغزو نافلة.

والفرض في الجهـاد ينقسم أيضا قسـمين: أحـدهما: فـرضٌ عـام متعين على كل أحـــدٍ ممن يســتطيع المدافعة والقتــال وحمل السلاح من البـالغين الأحـرار، وذلك أن يحل العـدو بـدار الإسـلام محاربا لهم، فـإذا كـان ذلك وجب على جميع أهل تلك الـدار أن ينفروا ويخرجوا إليه خفافاً وثقالاً وشباباً وشيوخاً ولا يتخلف أحد يقدر على الخروج من مقاتل أو مكـثر، وإن عجز أهل تلك البلـدة عن القيام بعـدوهم كـان على من قـاربهم وجـاورهم أن يخرجـوا قلوا أو كثروا على حسب ما لزم أهل تلك البلدة، حتى يعلموا أن فيهم طاقة على القيـام بهم ومـدافعتهم، وكـذلك كل من علم بضعفهم عن عدوهم وعلم أنه يدركهم ويمكنه غيـاثهم لزمه أيضا الخـروج اليهم، فالمسـلمون كلهم يد على من سـواهم، حـتى إذا

قـام بـدفع العـدو أهل الناحية الـتي نـزل العـدو عليها واحتل بها سـقط الفـرض عن الآخـرين، ولو قـارب العـدو دار الإسـلام ولم يدخلوها لزمهم أيضا الخروج إليه.](الكافي في فقه أهل المدينة :463).

وتأمل تعليله معونة المسـلمين ونفـيرهم لنصـرة إخـوانهم بقوله (فالمسـلمون كلهم يد على من سـواهم) وانظر إلى الـدعوات المعاصرة التي قسمت الأحكام وفصلتها تبعاً لتقسيمات سايكس بيكو الـتي جعلت المسـلمين دولاً وأوزاعـاً، وشـيعاً وأحزابـاً كل حـزبٍ بما لـديهم فرحـون وبما هم فيه من العصـبية المنتنة فخرون، قال شـيخ الإسـلام –رحمه اللـه- : [وإذا دخل العـدو بلاد الإسـلام فلا ريب أنه يجب دفعه على الأقـرب فـالأقرب؛ إذ بلاد الإسلام كلها بمنزلة البلدة الواحدة]اهـ.

وقـال العلامة أبو بكر الجصـاص الحنفي –رحمه الله- : [ومعلـوم في اعتقاد جميع المسـلمين أنه إذا خـاف أهل الثغـور من العـدو، ولم تكن فيهم مقاومة لهم فخـافوا على بلادهم وأنفسـهم وذراريهم أن الفـرض على كافة الأمة أن ينفر إليهم من يكف عاديتهم عن المسلمين، وهـذا لا خلاف فيه بين الأمة إذ ليس من قول أحد من المسلمين إباحة القعود عنهم حـتى يسـتبيحوا دمـاء المسلمين وسبي ذراريهم](أحكام القرآن : 4 /312).

وقال شيخ الإسلام –رحمه الله-: [وأما قتال الدفع فهو أشد أنواع دفع الصائل عن الحرمة والدين، فواجب إجماعاً، فالعـدو الصـائل الذي يفسد الدين والـدنيا لا شـيء أوجب بعد الإيمـان من دفعـه، فلا يشـترط له شـرط، بل يـدفع بحسب الإمكـان وقد نص على ذلك العلمـاء أصـحابنا وغـيرهم، فيجب التفريق بين دفع الصـائل الظالم وبين طلبه في بلاده](الفتاوى الكبرى : 5 / 537).

وقال أيضاً بعد أن ذكر الخلاف في مسألة وجوب الجهـاد بالمـال لمن عجز عن الجهاد بالنفس وكـان موسـراً : [وينبغي أن يكـون محل الروايـتين في واجب الكفايـة: فأما إذا هجم العـدو فلا يبقى للخلاف وجـه، فـإن دفع ضـررهم عن الـدين والنفس والحرمة واجب إجماعاً]اهـ.

وهـذا الحكم المجمع عليه والـذي أوضـحه العلمـاء غاية الإيضـاح، دخل في هـذا العصر دائـرة التشـكيك والتفكيك والأخذ والـرد

والاعــتراض والنقض، فلم يســلم هو أيضــاً من معــاول التغيــير وعوامل التحوير ولا حول ولا قوة إلا باللـه، مع أن هجـوم الكفـار على ديار المسلمين واحتلالهم لها واضح وضوح الشــمس بعد أن أجلبوا عليها بجيوشهم الجرارة وحشودهم الضخمة وفرضوا عليها أحكــامهم وحكومــاتهم وســاموا ســكانها من المســلمين ســوء العــذاب، وظهر في تلك البلــدان من أنــواع الفســاد والإلحــاد والفســوق والمــروق في ســنوات معــدودات ما يشــيب لهوله الولـدان، فليس غريبا إذاً أن يقـول شـيخ الإسـلام إن دفع أمثـال هؤلاء ليس شيء أوجب بعد الإيمان منـه؛ لأن بقـاءهم مسـتقرين متمكنين يعني مع طول الزمن وتقادم الإيام رفع الإيمان عن تلك الأرض أو أن يبقى مسخ من النــــاس لا يعرفــــون معروفا ولا ينكرون منكراً، ولهذا أدرك العلماء الأجلاء خطورة هـذه المسـألة فعظموها وفخموها وهولـوا شـأنها وعـدوها أم المصـائب ونائبة النوائب حتى يستعشر المسلمون خطرها ولا يتهاونون في أمرها فانظر مثلا ما يقوله إمام الحرمين الجويني –رحمه الله- عن مثل هذه الحالات : [فمن استمسك بالحق ولم يمل به مهـوى الهـوى عن الصدق تبين على البدار والسبق أن خزائن العـالمين وذخـائر الأمم الماضين وكنـوز المنقرضـين لو قـوبلت بوطـأة من الكفـار لأطـراف ديـار الإسـلام لكـانت مسـتحقرة متسـنزرة، فكيف لو تملكوا البلاد، وقتلوا العباد، وقرعوا الحصـون والأسـداد، وخرقـوا عن ذوات الخدور حجب الرشـاد، ومـال إليهم من لا خلاق له من حثالة النــاس بالارتــداد، وتخلل الحرائر العلــوج، وهتك حجــابهن التبذل والبروج، وهدمت المسـاجد، ورفعت الشـعائر والمشـاهد، وانقطعت الجماعــات والأذان، وشــهرت النــواقيس والصــلبان، وتفاقمت دواعي الاختزاء والافتضاح، وصارت خطة الإسلام بحـرا طافحا بالكفر الصراح](غياث الأمم:254)

ومعلومٌ أنه لا فرق في هذا الحكم بين أن يكون العدو قادماً على بلاد المســلمين من خارجهــا، وبين أن يكــون متســلطاً عليها وهو من أهلها وســكّانها، وهو ما اصــطلح المعاصــرون على تســميته (بالعدو الخارجي والعدو الداخلي)، فإن الضرر المحـدق بالإسـلام والمسلمين من جراء تسلط الكفـرة وتغلبهم لا يختلف في أصـله بين الحالتين وإنما يتفاوت بقدر عتو الكفـرة وطغيـانهم ومكـرهم

وكيدهم وشدة ضغينتهم وعظم صيالهم، ولهذا قال شيخ الإسـلام (فالعـدو الصـائل الـذي يفسد الـدين والـدنيا لا شـيء أوجب بعد الإيمان من دفعه)، فعلق الأمر على صيال العدو وإفسـاده للـدين والدنيا، وهي صـفةٌ كاشـفةٌ لا مقيِّدة فما من عـدوٍ صـائلٍ إلا وهو مفسدٌ للدين والدنيا مهلكٌ للحرث والنسل، فلا يختص أصل وجود هذا الوصف بعدوٍ خارجي كالأمريكان، أو اليهود، أو غيرهم.
بل من يتأمل مجريات التاريخ الإسلامي وما احتـواه من مصـائب وأهوال والتي اجتاح فيها الكفـار بلاد المسـلمين وابتلعها كاللقمة السـائغة يجد في الغـالب أن اعتمـادهم في مداهمة بلـدان المسـلمين واسـتباحتهم لحرمـاتهم إنما يتم عـبر الخونة المنسـلخين من الـدين والقيم والرحمة ممن يقيم بين ظهـراني المسلمين وينتسب إليهم ويضمر الضغينة والحقد عليهم حـتى إذا سنحت له فرصةُ بثِّها قتل ونكل وشرد وتمرد وطغى وعتى ورأى المسلمون على يديه من الخيانـات والإجـرام والتنكيل والانسـلاخ من الرحمة ما لم يخطر على بالهم، فهم وإن كاشروا المسلمين حيناً فإن تحت ضلوعهم الداء الدوي، وإذا كان الأمر كذلك فليس غريباً إذاً أن يصف القـرآن أهل النفـاق ويحـذر منهم حيث يقـول الله فيه : {هُمُ الْعَـدُوُّ فَاحْـذَرْهُمْ قَـاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُـونَ} [المنافقون/4]
ومن تأمل حال بلـدان المسـلمين اليـوم سـواء منها ما وقع تحت حكم النصـارى أو اليهـود أو المرتـدين يـدرك بسـهولة معانـاة المسـلمين في الحـالتين واصـطلائهم بنـار (تغلب الكفـرة) في الصورتين سواء منها ما كانت فيها الغلبة للكفار الأصليين كما هو الحال في العراق وأفغانستان وفلسـطين والشيشـان وتركسـتان الشـرقية وغيرها أو ما كـانت الغلبة فيها للمرتـدين كسـائر بلاد المسـلمين الأخـرى، فالسـجون مكتظة بأسـارى المسـلمين هنا وهناك، ومطاردة المجاهدين والتنكيل بهم جارية على قدم وساقٍ في الموضـعين، وتهـديم الأخلاق وإفسـاد العقائد ونشر الفاحشة في الـذين آمنـوا وفتح المجـالات للمنسـلخين من الـدين والآداب والقيم وتقـديمهم وإفسـاح سـائر سـبل التسـهيل لهم والتضـييق على أهل الحق ودعـاة الصـدق كل ذلك لا يخفى على أحـدٍ، بل والله إن سجون طغـاة العـرب والعجم الـذين تنتسب حكومـاتهم

للإسـلام لهي أشد وأنكى وأخـزى من سـجون اليهـود والنصـارى ومع ذلك فكلهم في فلك الإجرام والشر يَسبَحون.
ومعلــومٌ أن أبا بكــرٍ الصــديق رضي الله عنه إنما أمضى جيش أسـامة رضي الله تعـالى عنه لقتـال الـروم لأن النـبي صـلى الله عليه وسلم هو الذي عقد لواءه وأوصى بإنفاذه وهو على فــراش الموت، أما بقية الصـحابة رضي الله عنهم ممن لم يكن في ذلك الجيش فإنما اســتنفرهم أبو بكر ذلك الاســتنفار العظيم لقتــال (العدو الـداخلي) ممن ارتـدوا على أعقـابهم بعد إذ هـداهم اللـه، والذين كانوا تحت حكم الإسلام وفي مظلة دولتـه، وقـام كل من ثبت على الإســلام من تلك الأقــوام بمعونة جيــوش المســلمين والقتال معهم لأقوامهم كما قال الإمام ابن حزمٍ -رحمه الله- بعد أن ذكر أحوال الناس وأصـنافهم بعد وفـاة النـبيٍ صـلى الله عليه وسلم : [إلا أن في كل قبيلة من المؤمنين من يقـاوم المرتـدين، فقد كـــــان باليمامة ثمامة بن أثــــــال الحنفي في طوائف من المسلمين محاربين لمسيلمة، وفي قوم الأسود أيضا كذلك، وفي بــني تميم وبــني أسد الجمهــور من المســلمين، وطائفة رابعة تـــوقفت فلم تـــدخل في أحد من الطوائف المـــذكورة وبقــــوا يتربصون لمن تكون الغلبة كمالك بن نويرة وغيره، فـأخرج إليهم أبو بكر البعــــوث فقتل مســـيلمة، وقد كـــان فــــيروز وذاذويه الفارسـيان الفاضـلان رضي الله عنهما قتلا الأسـود العنسي فلم يمض عام واحد حتى راجع الجميع الإسلام أولهم عن آخرهم]اهـ.
وعليه فلا يجب على المســــلمين إذا تهيـــأت لهم الأســـباب وساعدتهم الأحوال والظروف أن ينتظروا في كل حينٍ أن يـدخل بلادهم ويـدهم أرضـهم (عـدو خـارجي)، فعنـدها فقطً ينتفضـون للقتال، أما ذا لم يحصل ذلك فيـوجَبُ عليهم كف الأيـدي بلا دليل قائم من كتاب ولا سنة، وقد قال شيخ الإســلام ابن تيمية –رحمه اللــه- : [وليس من شــريعة الإســلام أن المســلمين ينتظــرون عـدوهم حـتى يقـدم عليهم، هـذا لم يـأمر الله به ولا رسـوله ولا المسلمون، ولكن يجب على المسلمين أن يقصدوهم للجهـاد في سبيل الله، وإن بدأوا هم بالحركة فلا يجوز تمكينهم حـتى يعـبروا ديار المسلمين، بل الواجب تقـدم العسـاكر الإسـلامية إلى ثغـور

المسلمين، فالله تعالى يختار للمسلمين في جميع الأمــور ما فيه صلاح الدنيا والآخرة.]اهـ.
ولا أقصد هنا طــرح المســألة المعروفة وهي بأيهما يكــون البــدء أبالعدو القريب أم بالعدو البعيد؟، فأصل هذا الطرح لا يخالف في مشروعية القتالين وإنما ينـاقش أي البـدئين أجـدى نفعـاً وأعظم أثراً وهذا في أغلبه قضـية ميدانية تتبع الظـروف والأحـوال الـتي يعيشــها المجاهــدون خصوصا والمســلمون عمومــاً، وليس على المجاهـدين بعد النظر والمشـاورة جنـاحٌ في اختيـار العـدو الـذي يكـــون قتـــالهم له هو المقـــدَّم، وهـــذا كما جـــرى عمل غـــالب المجاهدين في هذه الأيـام بمقاتلة الأمريكـان وتتبعهم وتقصـدهم باعتبارهم أشد الأعداء كلَبـاً وأعظمهم معونة لسـائر الكفـرة من اليهـود والمرتـدين، ولا تكـاد تجد سـاحة من سـاحات الجهـاد إلا ولهؤلاء المجرمين يد في إمداد الكفرة المحاربين للــدين في تلك البقعة، وهذه الدولة الملفّقة لا تخفي ذلك ولا تستره بل تتبجح به وتبـالغ في إشـهاره وإظهـاره، فلا ضـير إذا أن يجعل المجاهـدون في مقدمة أعمـالهم قطع هـذه اليد المعتدية الممتـدة إلى بقـاع المسلمين تخـرب وتـدمر وتفسد أو تعين المفسـدين والمخـربين من أوليائها ووكلائها، وهـذا تقرير لا غبـار عليه وإنما الكلام اليـوم قد انتقل إلى مســألة مشــروعية قتــال هــذه الأنظمة المرتــدة واشتداد النكـير على من يقـول بـذلك فضلا عمن يمارسه ويجتهد في أدائـه، ثم إحلال الحـوارات الوطنية وإصـلاح الـبيت الـداخلي وتقوية الجبهة الداخلية وتفهم وجهة نظر (الآخــر) وغــير ذلك من الخزعبلات محلَّ عبـادة الجهـاد الـتي يـراد التفلت منها والتـترس عنها بأي وسيلة، وما حال أولئك إلا كالظمآن الذي يروم الارتـــواء بالخمر الصرف فلا تزيده إلا عطشاً حتى ترديَه، قال تعالى : {إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُـرُّوهُ شَـيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[التوبة/39].
ثم إن الكثــيرين ممن يتحــدثون عن الاقتصــار على قتــال العــدو الخــارجي، ولم يكتب لهم شــرف ممارسة الجهــاد في ســاحاته، ومعاينة ومعاناة همومه وجراحاته، ويتعاملون معه بنظرة إجمالية عمومية عن بعدٍ دون الدخول إلى تفاصيل أعمالــه- يحســبون أن الانتصـــــار على تلك القـــــوة الخارجية المداهمة ودحرها إنما يقع

بضربة لازب، ويغريهم في ذلك مجرد تعاطف النـاس الكبـير عند أول شــــرارة الاحتلال حـــتى إذا طـــال عليهم الأمد واسترسل الاحتلال وامتــد، وتمكّنت دولتــه، وتضعضت مسـيرة الجهـاد بين الانتصـار والانكسـار، والارتفـاع والانخفـاض وخالجتها المـؤامرات والدســائس وإطلال رؤوس النفــاق، رأيت وميض الحماسة بــدأ يخفت، وهيجـان التأييد يضـعف فيكـون المـرء متعـاملا مع قضـايا المسلمين لا من منطلق الفهم الشرعي الراسخ والقيام بواجباته المضـبوطة وإنما بالحماسة والعاطفة ومثل هـذا التعامل يُسـتفاد منه شيء ما ولكن لا يمكن الاعتماد عليه ولا الوثوق به في إدارة عجلة الجهــاد ولا في تقــييم أوضــاعه ومعرفة مآلاتــه؛ لأن أمر العواطف لا يُضبط ولو وكل أمر الشرع إليها لما قـامت له قائمة ولا بقيت معه باقيـة، فـالمطلوب من المـرء المسـلم أن يكـون فعَّالاً لا منفعلاً فحسب، ومؤثِّراً لا متـأثراً فقـط، والشـواهد على هذا الأمر من واقع ساحات الجهاد المعاصـرة كثـيرة، كالحالة في فلسـطين أو الشيشـان أو المرحلة الأخـيرة من العـراق وهكـذا، ولهـذا فقد تجد بعض مَن كـانوا متحمسـين للجهـاد ومنفعلين مع قضـــية من قضـــاياه في مرحلة من المراحل غاية الانفعـــال قد يصلون في مسألة (قتـال العـدو الخـارجي) إلى نفس ما اسـتقر في نفوسهم وترسخ في صدورهم من عدم جـدوى قتـال (العـدو الداخلي) لأنه يرى أن الأبواب موصدة، وأن ملامح النصر لا يظهر لها بصــيص أمــل، وأن جهــود ســنوات من القتــال المحتــدم والتضحيات الكبيرة لم تُجنَ ثمارها بعد، وأن المرحلة الذهبية من التفاعل الشـــــعبي والتوجه الإعلامي المركز قد أعقبها فتـــــورٌ وخمولٌ فيرجع القهقرى ليبحث بعدها عن بدائل (سلمية) لإخـراج المحتل كما تحصَّـل على وسـائل (سـلمية) وشـرعية أيضـاً! في معارضة أنظمة الحكم وبهـذا يوصد بـاب الجهـاد العملي كلية أو يحجّم ويقلص إلى أقصى حدٍّ لينحصر فقط في جهـاد اليهـود في فلســـطين مع وضع عراقيل وإحاطته بمفـــــاهيم لا يمكن معها تطبيقها إلى يوم التناد، وقد قـال تعـالى في آيـاتٍ بينـاتٍ باقيـاتٍ لمن يطلب الدواء الشافي من غير تعنتٍ ولا مواربة : {قَـدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُـنَنٌ فَسِـيرُوا فِي الْأَرْضِ فَـانْظُرُوا كَيْـفَ كَـانَ عَاقِبَـةُ الْمُكَذِّبِينَ (137) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (138)

وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (139)ـ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (140) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (141)ـ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ [آل عمران/137، 142].

ولتراجَع أقوال أئمة السلف ومن بعدهم من العلماء في هذه الآيات فإنها بلسمٌ عذبٌ لكل من أجهده طول المسير وأرهقه قلة النصير ليستيقن بقلبٍ مطمئنٍ أن العاقبة للمتقين، وأن للكفر انتفاشة منتنة ستزول عمّا قريب، وأن معركة بهذه الجسامة والضخامة والعتاد والعناد والأعداد والإمداد لا يمكن حسمها إلا بجهدٍ عظيم وصبر طويل ومنهجٍ راسخ وعقيدة متمكنة وثقة بالله قاطعة لا تتقلب مع الظروف يمنة ويسرة، وهو ما يحتاج إليه كل من أراد الجهاد حتى ينال إحدى الحسنيين أما من بنى أمره على عاطفة هائجة أو تخيلات مائجة فهو محظوظ لو بلغ منتصف الطريق ونسأل الله العافية والثبات.

الإجماع الخامس : اتفق العلماء على كفر من ظاهر الكفار على المسلمين وأعانهم عليهم.

وبفضل الله فإن هذه المسألة من أوضح المسائل في كتاب الله تعالى والأيات في هذا المعنى كثيرة جداً، وقد أفاض علماء الدعوة النجدية خاصةً في حديثهم عنها، وذكر تفاصيلها، بل تخصيص الكتب والرسائل المتعلقة بها، ولم تزل كتبهم وأقوالهم تُدرَس وتنشر وتؤكّد وتردَّد ويعدّها الناس من المسلّمات التي لا يجرؤ أحدٌ على مسِّها أو دسِّها أو الاقتراب منها حتى إذا وقعت حكومة آل سعود في هذه الورطة وغرقت فيها من الأخْمَصِ إلى النَّاصية وكان أمرها فيها مفضوحاً فُرطاً انتصبت الأقلام واندلعت الألسن فصالت وجالت من هنا وهناك للتشكيك في هذا الحكم، وسقّت عليه سوافي الشبهات، وقامت بإدخاله قسراً وقهراً دائرة الأخذ والرَّد وأقحمته في مجلبة الخلافات التي لم يكونوا يرتضون فيها مجرَّد التعريض بها، فعلمنا بعدها أن كثيراً من تلك التقريرات والتأصيلات لم تكن مبنية على التجرد في محاولة الوصول إلى الحق، وإنما سلكت مسلك الممارة لمجاراة أهواء

الطغـاة ومحاولة سـدِّ أي بـابٍ يمكن أن يثبت من خلاله كفـرهم وردتهم حـتى وإن كـان ما يقـترفون من الكفر أجلى من شـمس الصائفة.
وعلى كل حالٍ فليسـلِّم مَن شـاء بالإجمـاع المحكي أو لا يسـلِّم، وليعترف به أو يجـادل، وليقر به أو يعـترض، فـإن التصـريح بكفر مَن ظاهر الكفار على المسلمين ليس بدعاً من قول المجاهدين، ولا هو من تخرّصـــاتهم وابتكـــاراتهم، ولم تنتجه حماســـتهم ولا عواطفهم، فأقوال العلماء الثقات المؤتمـنين واضـحة جلية تنطق بـالحق في ذلك وتصـرِّح بهـذا الحكم، والمجاهـدون ليسـوا ممن يقلِّبون أحكام الشرع وينقلبون عليها، ويشـقِّقونها ويحوِّرونها كلما أزعجت الطغاة المتجبِّرين، كما أنهم لا يعتمدون في تقرير أحكام الشرع تبعاً لميولات الناس واسـتجابة لعواصف عـواطفهم، فـإن الحق يُتَّبع ولا يَتْبَع، فكلُّ من يسوِّد الصفحات ويسـتل بالمنـاقيش كـوامن الشـبهات لأجل خلخلة هـذا الأمر فعليه أن يبـدأ أولاً بما سطرته أنامل العلماء الأمناء الذين كتبوا ما كتبوا ولم يلتفتوا إلى رضا طاغيـة، ولم يـدفعهم الجبن والخـور (وحب الـدنيا وكراهية المـوت) إلى التلاعب بأحكـام الشـرع، وما دام المجاهـدون لم يُحـدِثوا هـذا الحكم أو يبتكـروه إذاً فما عليهم من سـبيل : {إِنَّمَا السَّـبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُـونَ النَّاسَ وَيَبْغُـونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْـرِ الْحَقِّ}[الشورى/42].
فمن المعلوم مدى شدة بغض عوام المسلمين لليهـود، وكـرههم لكل ما له علاقة بهم، ومجــــرّد إطلاق لفظ (يهـــــودي) يعد عند المسلمين كافةً سبةً كفيلة بـأن تسـتثير الكـامِن وتغضب الحليم، فلـذلك فلا تكـاد تجد عالمـاً واحـداً إلا وهو يشن عليهم الغـارة – حـتى هـذه اللحظة – ويصـرِّح بقبح التعامل معهم، كما حصل في البيان المتعلِّق بإغلاق ممر رفح إبَّان حـرب غـزة الأخـيرة، والـتي وقّع كثيرٌ من العلماء ومن سائر بقاع الأرض على كفر مَن يظاهر اليهود ويعينهم على ما يقومون به من جـرائم، وأسـهبوا في ذلك وأطنبوا، واستدلوا بأقوال العلماء ولم نسمع شيئاً من التخرّصات التي تولّدت في حق مسألة المظـاهرة، والـتي لو أراد المـرء أن يطبّقها على ما فعل طاغية مصر من (مجـــــرد) إغلاق ممر رفح لوجد له من الأعذار (المقنعة) أضعاف أضعاف ما يختلق ويُتكلّف

في اصطناعه وإحداثه حينما يصل الأمر إلى مظـاهرة الأمريكـان الكفرة على المسلمين في أفغانستان أو العـراق أو الصـومال أو اليمن أو غيرها، حيث المظاهرة الجلية العلنية الفاضحة الواضحة التي لا تخفى على الأعمى وهي لا تتعلق بمجرد إغلاق ممـر، فما لكم كيف تحكمون : {أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَـرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ}[القمر/43]

قـال الإمـام أبو محمد بن حـزمٍ : [فصح بهـذا أن من لحق بـدار الكفر والحرب مختاراً محارباً لمن يليه من المسـلمين فهو بهـذا الفعل مرتد له أحكام المرتد كلها، من وجـوب القتل عليـه، مـتى قدر عليه ومن إباحة ماله وانفساخ نكاحه وغير ذلـك؛ لأن رسـول الله صلى الله عليه وسلم لم يبرأ من مسلم...وكذلك من سـكن بـأرض الهند والسـند والصـين والـترك والسـودان والـروم من المسلمين، فإن كان لا يقدر على الخـروج من هنالك لثقل ظهـر، أو لقلة مال، أو لضعف جسم، أو لامتناع طريق فهو معذور، فـإن كـان هنالك محاربـاً للمسـلمين معينا للكفـار بخدمة أو كتابة فهو كافر](المحلى:11 / 200).

وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب –رحمه الله- وهو يعدد نواقض الإسـلام : [الثـامن : مظـاهرة المشـركين ومعـاونتهم على المسلمين، والدليل قوله تعـالى : {ومن يتـولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين } .]اهـ

وقـال العلامة أحمد شـاكر –رحمه اللـه- في رسـالته المطوّلة والمفصلة للأمة المصـرية خاصة والإسـلامية عامة : [أما التعـاون مع الإنجليز, بأي نوع من أنـواع التعـاون, قـلّ أو كـثر, فهو الـردّة الجامحة, والكفر الصّراح, لا يقبل فيه اعتذار, ولا ينفع معه تـأول, ولا ينجي من حكمه عصبية حمقاء, ولا سياسة خرقاء, ولا مجاملة هي النفـاق, سـواء أكـان ذلك من أفـراد أو حكومـات أو زعمـاء. كلهم في الكفر والـردة سـواء, إلا من جهل وأخطأ, ثم اسـتدرك أمـره فتـاب وأخذ سـبيل المؤمـنين, فأولئك عسى الله أن يتـوب عليهم, إن أخلصوا من قلوبهم لله لا للسياسة ولا للناس.

وأظنـني قد اسـتطعت الإبانة عن حكم قتـال الإنجلـيز وعن حكم التعـاون معهم بـأي لـون من ألـوان التعـاون أو المعاملة, حـتى

يستطيع أن يفقهه كل مسلم يقرأ العربية, من أي طبقات الناس كان, وفي أي بقعة من الأرض يكون.
وأظن أن كل قارئ لا يشك الآن, في أنه من البديهي الذي لا يحتاج إلى بيان أو دليل: أن شأن الفرنسيين في هذا المعنى شأن الإنجليز, بالنسبة لكل مسلم على وجه الأرض, فإن عداء الفرنسيين للمسلمين, وعصبيتهم الجامحة في العمل على محو الإسلام, وعلى حرب الإسلام, أضعاف عصبية الإنجليز وعدائهم, بل هم حمقى في العصبية والعداء, وهم يقتلون إخواننا المسلمين في كل بلد إسلامي لهم فيه حكم أو نفوذ, ويرتكبون من الجرائم والفظائع ما تصغر معه جرائم الإنجليز ووحشيتهم وتتضاءل, فهم والإنجليز في الحكم سواء, دماؤهم وأموالهم حلال في كل مكان, ولا يجوز لمسلم في أي بقعة من بقاع الأرض أن يتعاون معهم بأي نوع من أنواع التعاون, وإن التعاون معهم حكمه حكم التعاون مع الإنجليز: الردة والخروج من الإسلام جملة, أيا كان لون المتعاون معهم أو نوعه أو جنسه.]اهـ.
وكلام هذا الإمام في هذه الرسالة في غاية القوة والوضوح والصراحة والتفصيل وقد دوّنه بأسلوبٍ سهلٍ وطريقةٍ ميسرة يستوعبها العامي أحرى العالم، وقد نفى عن نفسه أن يكون أثناء كتابته هذه الفتوى المحكمة قد مسه شيء من الغبش أو الالتباس، فليس ما يدونه هنا سبق قلم، ولا عبارات تهييج عاطفية ولا ردة فعل حماسية بل كتب تلك الأحكام وهو في (كامل قواه العقلية والعلمية)، حيث يقول : [وقد قلنا : (يجب على كل مسلم في أي بقعة من بقاع الأرض أن يحاربهم وأن يقتلهم حيثما وجدوا، مدنيين أو عسكريين)، ونحن نقصد إلى كل حرف من معنى هذه الجملة]اهـ.
وهي فتوى ذاعت وشاعت من لدُن إصدارها وإلى يومنا فدواعي انتشارها كفلية بأن توصلها إلى أقصى المشرق وأقصى المغرب، وقد قرأها العلماء وأخرجتها المطابع وأفردت وألحقت فما رأينا منها امتعاضاً ولا عليها اعتراضاً يذكر، بل والله إنه لذكر فيها ما هو أشد من مجرد المظاهرة التي هي الإعانة، فأعطى الحكم عينه لِمَن سالمهم فلم يحاربهم!، وحقيقةً أنا لم أستوعب وجه

هذه الفقرة استيعاباً تاماً حيث يقول –رحمه الله- : (ألا فليعلم كل مسلم في أي بقعة من بقاع الأرض أنه إذا تعاون مع أعداء الإسلام مستعبدي المسلمين, من الإنجيليز والفرنسيين وأحلافهم وأشباههم, بأي نوع من أنواع التعاون, **أو سالمهم فلم يحاربهم بما استطاع**, فضلا عن أن ينصرهم بالقول أو العمل على إخوانهم في الدين, إنه إن فعل شيئا من ذلك ثم صلى فصلاته باطلة...إلخ)اهـ.، فليشرق بذلك دعاة التطبيع والتمييع، فما هي من جعبتنا وإنما من كنوز الإمام المحقق المحدث الفقيه القاضي المفتي الأديب العلامة أحمد شاكر، أليس كذلك؟ شكر الله له صدعه بالحق، وأبقى كلامه شوكةً في حلوق المتميعين المتلاعبين بالشرع.
ومن المعلوم أن الشيخ كان يتحدث عن واقع شبيه بما يعيشه المسلمون اليوم في كثير من بقاع الأرض، وما عليك إلا أن تضع كلمة (الأمريكان) بدل قوله (الإنجليز) أو (الفرنسيين) لتجد محلّ الكلام متطابقاً ووصف الحال متوافقاً، وتأمل كلامه مثلا على الفرنسيين وقوله : (وهم يقتلون إخواننا المسلمين في كل بلد إسلامي لهم فيه حكم أو نفوذ, ويرتكبون من الجرائم والفظائع ما تصغر معه جرائم الإنجليز ووحشيتهم وتتضاءل, فهم والإنجليز في الحكم سواء, دماؤهم وأموالهم حلال في كل مكان)اهـ. أليس هو حقيقة ما فعله ويفعله الأمريكان والإنجليز وأحلافهم في أفغانستان والعراق، واليهود في فلسطين وهلمَّ جرا، وما معنى كلامه –رحمه الله- دماؤهم وأموالهم حلال في كل مكان؟!!!، وليرجع كل منصف إلى ما كتبه هذا الإمام وليرَ هل تجاوز المجاهدون في هذه المسألة مما قاله شيئاً، أم أن هذا الكلام الجريء القوي كان خاصاً بحقبة الاجتياح الغربي لبلدان المسلمين (الاستعمار) حينما كان القتل همجياً عشوائياً وحشياً، أما الاستعمار الحالي الذي يستظل بقرارت مجلس الأمن، ويتدثر بدثار الأمم المتحدة، ويلتحف لحاف (حفظ السلام)، فلا تثريب عليه لأن قتله للمسلمين إنما يقع (بالصورايخ الذكية)، مع أن ما يرتكبه من الجرائم والعظائم يساوي أو يفوق ما تحدث عنه العلامة أحمد شاكر.

وقال الشيخ سليمان العلوان – فك الله أسره- : [وقد حكى غــير واحد من العلمـــاء الإجمـــاع على أن مظـــاهرة الكفـــار على المسـلمين ومعـاونتهم بـالنفس والمـال والـذب عنهم بالسـنان والبيان كفر وردة عن الإسلام قال تعالى "ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهـدي القـوم الظـالمين" . وأي تـولٍ أعظم من مناصرة أعداء الله ومعاونتهم وتهيئة الوسائل والإمكانيات لضرب الديار الإسلامية وقتل القادة المخلصين]اهـ.

وقال الشـيخ عبد العزيز بن بـاز –رحمه اللـه- :[وقد أجمع علمـاء الإسلام على أنَّ من ظاهر الكفار على المسلمين وساعدهم بـأي نوع من المساعدة فهو كافر مثلهم](مجموع الفتاوى والمقـالات: 1/274).

وهي من أكثر المسائل طرقاً في هـذه الحـرب الصـليبية، إلا أنها تتعــرض اليــوم لهجمة تطويعية تمييعية شــعواء شــنعاء يــراد بها إدخالها في ســراديب الشــبهات والمناقشــات، ليســلم بعد ذلك الطغاة المظاهرون للكفار على المسلمين، فأبشر بطول سـلامة يا مربع!

فهذه إجماعات خمسةٌ متعلقة بالواقع الشرعي الـذي ينطلق منه المجاهدون، والأحكام الشرعية الـتي تنص عليها تلك الإجماعـات يدعمها الكثير من أدلة الكتاب والسنة، وهي مشهورة ومتداولــة، ولكن لم نــرد الإطالة بــذكرها، فليس شــيء من هــذه الأحكــام مســتخرجاً من (كيس) المجاهـدين، ولا نحتته أفكـارهم أو أنتجته فتـــاوى ســـاحاتهم، ولا ولـــدتها ردود أفعـــالهم وحماســـهم وانفعالاتهم.!!!

بل كثيرٌ من العلماء كانوا أصرح الناس ذكراً لتلك الأحكـام وبيانـاً لها ورداً على من يعرِّض بها فضلا عن الاعتراض عليها، فــإذا بهم اليــوم كــالتي نقضت غزلها من بعد قــوة أنكاثــاً يتخــذون عين الشـبهات الـتي كـانوا يفنـدونها دخلاً بين تلك الأدلة والإجماعـات محاولين ما اسـتطاعوا نقضـها وتحريفها عن وجهتهـا، وما أسـهل أن تردّ عليهم بأقوالهم التي لم تزل شـاهدةً بما كـانوا عليه مما ينـــاقض من كل وجـــهٍ ما صـــاروا إليـــه، إذاً فما الـــذنب ذنب المجاهدين الـذين بقـواً مستمسـكين بالأصل سـائرين عليه وإنما اللــوم على مَن بــدَّل وغيَّر، وتعلّق بما كــان يُميته من التهــويش،

وليس عليهم أن يكونــوا إمعــات إن أحسن النــاس أحســنوا وإن أساءوا أســاءوا كما يــروى : (لا تكونــوا إمعة تقولــون : إن أحسن النــاس أحســنا و إن أســاءوا أســأنا و لكن وطنــوا أنفســكم إن أحسنوا أن تحسنوا و إن أساءوا أن لا تظلموا).

وفي الختام

هذا ومن يتأمل ما وصلت إليه شــبهات القــوم يعلم أن الضــلال لا يولد إلا الضلال، والبدعة لا تنجب إلا بدعةً، فإذا كانت دعاوى كثير من القــوم من قبل قائمة على الاعــتراف بحقيقة هــذه الأنظمة وعدم المكابرة في محادتها لله ولرسوله، وأنها حكومــات كــافرة محاربة للــدين، فــإن الحــديث عن هــذه الأمــور صــار اليــوم عند الكثــيرين ليس بــذي قيمة يســتحق بها العناية والعنــاء بل تقــدم بعضهم خطوة وخطوات حتى انتقلوا إلى عــدوة التقرير لشــرعية هذه الأنظمة وســخَّروا أنفســهم وما آتــاهم الله من العلم لينقبــوا عن نقير الشبهات وقطميرها وجادلوا بالباطل ليدحضــوا به الحق بعد أن بــدأت الأمة الإســلامية تفيق من ســباتها العميق وتقــترب من الهدى الذي أبعــدها عنه هــؤلاء الطغــاة عقــوداً طويلــة، وتلك والله جناية عظمية سيســألون عنها بين الله عز وجــل، وذلك أن إفهــام الأمة لحقيقة هــذه الأنظمة المرتــدة وكشف الغشــاوة عن أعينها، وإزالة الشبهات التي تخــدِّرها لم يقع بين عشــية وضــحاها ولا بجــرة قلمٍ وإنما بجهــودٍ ضــخمةٍ متواصــلةٍ دفعت –ولا زالت تــدفع- فيها ضــرائب عظيمة من الأنفس والأعــراض والأعمــار والأموال، واليوم لم تقف دعــوات الانحــراف والتمــييع عند إثبــات شــرعية هــذه الأنظمة المترهلة فقط بل انحــطَّ بعض دعــاة الزيغ إلى حضــيض التقــارب مع اليهــود والنصــارى ومحاولة محو أوثق عرى الإيمان (الحب في الله والبغض في الله)، فأصبح هناك تيارٌ متميزٌ قائمٌ على تمييع الــدين وتطويع أدلته بل التلاعب بأحكامــه، يحصل كل ذلك هروباً من تكــاليف المواجهة الــتي لا انفكــاك لهم عنها مهما بــــذلوا من الجهد وأقــــاموا من العراقيــــل، لأنهم بين خيارين لا ثالث لهم، إما أن يستمسكوا بــالحق الناصع وهــذا ما لا يُرضي أعــداءهم من اليهــود والنصــارى وأذنــابهم، وإما أن يعلنــوا

اتّبـاعهم لملة المغضـوب عليهم والضـالين وذلك هو الخسـران المبين قال تعالى : {وَلَنْ تَرْضَى عَنْـكَ الْيَهُـودُ وَلَا النَّصَـارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُـدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْـوَاءَهُمْ بَعْـدَ الَّذِي جَـاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَـكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِـيرٍ} [البقـرة/120]، وقـال عز وجل : {ولَا يَزَالُـونَ يُقَـاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَـرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْـتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَـدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِـهِ فَيَمُتْ وَهُـوَ كَـافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـالُهُمْ فِي الـدُّنْيَا وَالْآخِـرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْـحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِـدُونَ}[البقـرة/217]، أما التأرجح والوقـوف بينَ بين وجهـود الإحسـان والتوفيق أو التلفيق فإنها لا تغـني من الحق شـيئاً وسـيجد كثـيرٌ من هـؤلاء الملفقين أنفسهم قد أهدروا زهـرات أعمـارهم في الـركض وراء السـراب وانفقـوا جهـودهم في تحسـين الضـلال وتـزيين الخبـال وأنهم لم يزالـوا متقهقـرين وهم يحسـبون أنهم يحسـنون صـنعاً فعنـدها سيعضون أصابع النـدم والأمر لله من قبل ومن بعد : {وَمَنْ يُـرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَـهُ فَلَنْ تَمْلِـكَ لَـهُ مِنَ اللَّهِ شَـيْئًا}[المائـدة/41]ولو أنهم استمسـكوا بـالحق وعضـوا عليه بالنواجذ وقـذفوا به في وجه الباطل غـير هيَّابين ولا مـداهنين لعلِمـوا أن ضـريبة ذلك هي أقل بكثـيرٍ مما يدفعونه في جهـود التلفيق الـتي يخـادعون بها الله والـذين آمنـوا وما يخـدعون إلا أنفسـهم وما يشـعرون، ولو أنهم أقـاموا الحق وقـاموا به لـرأوا من بركـات ذلك ما لم يخطر على بالهم، ولم تحط به حساباتهم الـتي كبَّلتهم وخـدعتهم وخـدَّرتهم : {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَـدَّ تَثْبِيتًا (66) وَإِذًا لَآتَيْنَـاهُمْ مِنْ لَـدُنَّا أَجْـرًا عَظِيمًا (67)ـ وَلَهَـدَيْنَاهُمْ صِـرَاطًا مُسْتَقِيمًا}[النساء/66-68].

فلتمضـوا يا أهل الجهـاد على طـريقكم فـإنكم على الحـق، فمن رام اللحـوق بـركبكم فالقافلة تسـعه، ومن أشـغل نفسه بإثـارة الشبهات وإقامة العقبات فما جنايته إلا على نفسه ولن يضر الله شيئاً، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : [لا تـزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حـتى يـأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس] نسأل الله أن يجعلنا منهم .

والحمد لله رب العالمين.

بقلم الشيخ ....
المجاهد: أبو يحيى الليبي (حسن قائد) - حفظه الله

وكتبه / أبو يحيى (حسن قائد)
الجمعة 15/ جمادَى الأولى/ 1431هـ

ادعوا لإخوانكم المجاهدين



إخوانكم في
مركـز الفجـر للإعـلام
جمادى الأخرة 1431هـ